رواية

تصريح دفن

BURIAL PERMIT

أمير عزب

إبهار
للنشر والتوزيع

ضياء
t.me/twinkling4

تصريح دفن

أمير عزب

رواية

مراجعة لغوية : محمود الغنام _ روضة عمار_ محمد عبدالغفار

تصميم الغلاف: وحيد محمد

تنسيق: سمر ناصر

رقم الإيداع : ٢٨١١٢/٢٠٢٣

الترقيم الدولي : ٩-٤٠-٨٩٩٠-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى : ٢٠٢٤

جميع الحقوق محفوظة ©

أي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة
كتابية، يُعرّض صاحبه للمساءلة القانونية.
أما حقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في
الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

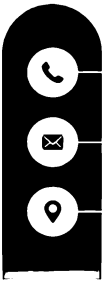

+20 109 919 7450

Info@ebharbook.com
www.Ebharbook.com

Strand block - Abdein square
down town - Cairo - Egypt.

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَــاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

«أخُطُّ بِأناملي مَا يَرُوق لِي، كيْفمَا شِئْتُ، بتوْقيع قناعاتي».

«جميعُ شخْصيَّاتِ الرِّوايةِ وأحْداثِهَا مِن وَحْي الخيَال، وأيُّ تَشابُهٍ بيْنَهَا وبيْن أسمَاءِ وتفاصيلَ حَقيقِيةٍ مُؤَكَّدٌ أنَّه غيْرُ مَقصُودٍ، وسببُه الوحِيدُ أنَّ أولَادَ الحرَامِ صَارُوا يتكاثرون تَكَاثُرًا غيْرَ مَسبُوقٍ على أرْضِ الواقع».

إهداء

إلى كُلِّ الكُتَّاب الَّذين كَانت لَهُم أحلَامٌ مِثْلِي، وَحَال المَوْتُ بينَهم وبينَ أمانيهم.. كُنتُم أصحَابَ كَلِمَة، ولم يَتَبَقَّ لَكُم مِن أثرٍ سِوى كَلِمَة، ولن ينفعكم الآنَ إلَّا كَلِمَة، طِبْتم وطابتْ ذِكْراكم، وتبوَّأتم مِنَ الجنَّة منزلًا.

«مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا».

{المائدة: 32}

ثمار الأرض تُجنى كل موسم.. لكن ثمار الصداقة تُجنى كل لحظة.

شكرًا أخي وصديقي شريف عبدالهادي

الفصل الأول

ها أنا وحيد بلا هوية، في الممر العابر بين النوم واليقظة، مسلوب الإرادة، فاقد القدرة على التمييز.. من أكون؟!

أحاول جاهدًا أن أعرف..

مَا أثقلَ جُفُونًا بَاتَت لِساعَات مؤصدة، أستشْعِر مِن خلْفهَا شُعَاع ضَوْء رفيعًا تَهرُب مِنْه حدقتاي يمينًا ويسارًا كغزْلان تتَفادَى سِهَام الصَّيْد. تَحَالفَت كُلُّ حواسِّي ألّا تَستجِيب لِأوامري في إضْرَاب عام حلّ فِي شَتَّى جَسدِي.. الألم يَستشْرِي فِي رَأسِي كالطَّاعون وكأنّي مِن أهْل الكهْف نِمْتُ مائة عام.

ـ أين ذراعي؟! هل بُتِرت؟!

أشعر بجحافل من النمل تتخذ من أوردتي أنفاقًا لهجرة غير شرعية، لا أستطيع تحريكها وكأنها مُكبَّلة بالأغلال، شعوري بالجاذبية تدريجيًّا أكد لي أني في وضعية الجلوس، أكافح بصعوبة لرفع جفنيّ المتصلبين كأبواب حديدية صدئة منذ قرون، الرؤية مشوشة، باهتة، ينسدل أمام عيني خيش مجدول، ضيق المسام.

سحقًا! ما هذا الذي أراه؟! أما زلتُ نائمًا وما أراه الآن مجرد أضْغَاث أحْلَامٍ، أم دُفنت حيًّا فصحوت لأجد نفسي مُكفنًا بذلك الخيش؟!

لا أستطيع الرؤية بوضوح، لكني أحاول استكشاف

أمري من خلف ذلك الخيش اللعين، ينهمر ضوء شديد من بين مسامّه يحول بيني وبين رؤية أي شيء، أدركت الآن أني مُتَّشِح الرأس، مُكبَّل اليدين، أجلس على كرسي صُمِّم خصيصى لهذا الغرض، لا أستطيع نزع ذلك الوشاح النتن من على رأسي، ربما اختُطِفت، بالتأكيد اختُطِفت، يدفعني الغضب إلى الفتك بذلك المقعد الذي ألتصق به، بينما يحدثني عقلي بالتزام الصمت والهدوء، وكأنه على موعد مع ذلك الحدث من قبل!

فيضان من التساؤلات جرف معه صخورًا نائمة تضرب ذاتي بلا هوادة، كيف؟! ومتى؟! ولِمَ جئت إلى هنا؟!

في كل الأحوال النتيجة واحدة وحتمية، إما اختطاف لتصفية حسابات وإما للمساومة.

هكذا تفاقت الهواجس في أعماق المقدم «محمد خطاب»، وهو يطفو إلى سطح واقعه المجهول، ثم تدفقت كل تكهناته في صرخة مدوية:

ـ أنا فين يا ولاد المرة؟! مين اللي جاله قلب يعمل فيَّ كدا؟!

إنتم عارفين أنا مين؟ أنا «محمد بيه خطَّاب».. ولو مش عارفين مين هو «محمد خطاب» أحب أقولكم إن اللي يعادي فرد من أفراد الداخلية، كأنه بيعادي الداخلية كلها.

****

لَيلَة مِن لَيالِي شِتَاء وسط القاهرة، عَزفَت الأمْطار على جُدْرانها لَحْن النَّقَاء، واغْتسلتْ كَعرُوس بِكْر لَيلَة زِفافِهَا، ضَجَّت الطُّرقات بِصَوت لَطِيم السيل المنْهمر، واكْتَظَّت الأرْصفة بتلاحمات بَشَرِيَّة تَحتَمِي بِأسْقُف البنايات، رُقَع المِيَاه المتناثرة فِي شوارعهَا العتيقة عكست على سطْحهَا تَشابُك أرجُل المارَّة المسْرعة مَمزُوجة بِأضْوَاء اللَّافتات الإعْلانيَّة المبْهرة.

اختفَى الباعة الجائلون والْمشرَّدون عدَا صغيرَيْنِ فِي العاشرة مِن أعمارهما، يتسكَّعان في الطُّرقات، يسْتمْتعان بِوَخز قَطَرات المطر لِوجوههما البريئة.. يتبادلان التَّدْخين على أحد الأرْصفة، بدَا الوضْع كَذلك، لَكِن فِي الحقيقة كُلمَا اقْتَربت مِنْهمَا اكْتشَفت أنهُما يلهوان بِبخار الْمَاء المُكثف فِي الْهَواء، يتقاذفان بأفواههما الزفير الدَّافئ الكامن فِي صدورهمَا إلى السَّمَاء، يتبادلان بَيْن أصابعهما وَرقَة صَنَعاهَا تُحَاكِي شَكْل السَّجائر، وارتسمت على ملامحهما البائسة ضحكَات بَرِيئَة تَحمِل كُلَّ مَعانِي «سَعادَة اللَّامبالاة»، فأكْثر أيَّامنَا سَعادَةً هِي تلْك الأيَّام التِي عِشْناهَا دون الاكْتراث بِمَا هُو قَادِم، كُنَّا نَغدُو ولَا نُبَالِي بِمَا يَدُور حوْلنَا، نَستمْتِع بِالْحياة حِين نجْهلهَا، ونندب حَظنَا ونتحَسَّر على ماضِينَا عِنْدمَا نكتَشِف حقيقتهَا.

رَمَقَتِ الصغيرين امرأةٌ سبعينيَّة تحتمي بمظلة سوداء ارتعش ساعدها من ثقلها، تتعكز بخطاها الوئيدة على عصا

معدنية، فأزعجها ما يفعلانه

وامتعضت قائلة:

ـ يخرب بيت أهاليكم، إنتم بتشربوا سجاير؟! أُمال لما تكبروا هتعملوا إيه؟!

ضحك عامل يستند إلى باب زجاجي في محل تجاري، وأجاب العجوز:

ـ هيطلعوا تجار مخدرات يا حاجة.

غضب أحد الصغيرين فردَّ ببراءة مشردة:

ـ وانت مالك انت، حد اشتكى لك؟! دا إيه التناحة دي!

اعتدل العامل في مكانه وتبخرت ابتسامته:

ـ تناحة مين يلا يا ابن الجزمة؟! يلَّا ياض يا عرص من هنا.

هتف الصغير:

ـ ما تغلطش يا عم انت، ما انا ممكن أشتمك واجري عادي.

سار نحوه العامل صائحًا:

ـ اعملها كدا يا روح امك وانا ادفنك في مكانك.

تدخلت العجوز بنبرة عمرها سبعون عامًا:

ـ سيبك منهم يا ابني، دي عيال راضعة زبالة.

رد أحد الصغيرين:

ـ تعرفي إيه عن الرضاعة يا مرة من غير صدر؟! خليكي في حالك.

توقَّف هطول المطر مع خطوات «منير» المسرعة حين جاء في اللحظة المناسبة لنزع فتيل الأزمة.. كان شابًّا نحيفًا، أسمر اللون، أجعد الشعر، اعتاد الجميع أن ينادوه بذلك الاسم؛ لتشابه ملامحه وحركاته وصوته مع نجم النوبة الذي احتلت أغنياته القلوب.

مدَّ «منير» ذراعيه حول الطفلين كالسياج؛ ليدفع عنهما غضب العامل، وفي قبضته اليُمنى كتاب «البؤساء» لـ«فيكتور هوجو»، وتدخل قائلًا:

ـ بس بس.. فيه إيه؟!

توقف اندفاع العامل، واصطدم صدره بساعد «منير» وهو يقول:

ـ عيال بنت وسخة ما اتربتش وعايزة الحرق.

ثم ارتفعت ساقه ليركل أحدهما، فاحتضنه «منير» وقال بنبرة احتواء:

ـ حقك عليَّ يا «مصطفى»، العيال دي تخضني.

أخذ العامل يضرب كفيه ببعضهما وهو يقول:

ـ مش عارف يا «منير» واحد زيك يعرف الأشكال دي منين!

ـ يا «مصطفى»، دي عيال صغيرة فتحوا عينيهم على الدنيا شافوها في أقبح صورها، مش هتبقى انت والظروف عليهم.

بملامح ساخرة ردد «مصطفى»:

ـ أقبح صورها؟! هَمّ يبكي وهَمّ يضحك، شوية كدا وهاتألف عنهم كتاب!

ابتسم «منير» بصفّي أسنانه البيضاء ثم أردف:

ـ تصدق فكرة.. ونسميه «كتاب حياتي يا عين».

هَمَّ الصغيران بإكمال كلمات الأغنية في نفَس واحد:

ـ ما شُفت زيه كتاااب.

غمز «منير» لـ«مصطفى» وانصرف من أمامه واضعًا ذراعيه على كتفي الصغيرين صائحًا:

ـ الفرح فيه سطرين..

أكمل الصغيران في تناغم:

ـ والباقي كله عذاااب.

غادروا المكان وهم مستمرون في الغناء، حتى اختفت أصواتهم تدريجيًا، ثم استوقفهم «منير» عند مبنى جراج «البستان»:

ـ فيه إيه يا «فهد» انت و«موزة»؟ عاملين مشاكل مع الناس ليه؟!

أجابه «فهد»:

ـ كلها بقت بتحشر مناخيرها في حياة غيرها.

ثم أكمل «موزة»:

ـ كل الحكاية يا عم «منير» كنا بنمثل إن احنا بنشرب سجاير وبنطلع دخان أونطة في أونطة، ما الناس كلها ماشية عمالة تطلع دخان من بُقها أهو، هي يعني جت علينا؟!

ضحك «منير» ثم أردف:

ـ طب أمال إيه اللي انت ماسكه في إيدك دا؟

ـ دي ورقة لفيتها على شكل السيجارة عشان أندمج في الدور.

ـ طب وريني كدا عشان عاوز أندمج في الدور أنا كمان.

ـ خد يا عمنا.. ما تغلاش عليك.

أخذ «منير» السيجارة الوهمية وسحب منها نفسًا عميقًا، ثم نفثه في اتجاه السماء ليتكثَّف البخار، ثم افتعل السُّعَال قائلًا:

ـ لا يا عم، السيجارة دي حامية عليَّ قوي.

قال «موزة» ساخرًا:

ـ خليك انت في الشيشة التفاح اللي متعود عليها.

مسح «منير» على شعره وقال بحنان:

ـ طب يلا من هنا، وإياكم تروحوا ناحية «مصطفى» تاني.

سأله «فهد» باسطًا كفه، مبتهجًا في سعادة كما ينبغي لصغير في عمره:

ـ فين النفحة بتاعة كل خميس؟!

أعطى «منير» كلًّا منهما ورقة من فئة الجنيهات الخمسة، وراقب البهجة التي يطرب لها قلبه وهي ترتسم على وجوههما، ثم سأل:

ـ آه بالحق.. مفيش أخبار عن الواد «أنس»؟!

أجابه «فهد»:

ـ من ساعة ما اختفى من القهوة، ماحدش يعرف عنه حاجة، غير اللي قُلناهولك قبل كدا.

اعتصرت قبضته الرواية، وشرد بعينيه مغمغمًا:

ـ غريب قوي الواد دا، ظهر فجأة واختفى على غفلة.

ثم نظر إلى الطفلين قائلًا:

ـ سلام دلوقتي.. ولو حد فيكم شافه أو عرف عنه حاجة بلغوني على طول.

****

خيَّم الصمت على «خطَّاب»، يجاهد نُعاس الخدر، سالت على وجهه قطرات متلاحقة من العرق تتجه إلى فمه، لم يستطِع منعها حتى بِهَزِّ رأسه، استطعم ملوحتها بلسان تشقق من العطش، فشلت محاولاته في رؤية أي شيء من مسام الوشاح، ضوء خارجي شديد منعه من ذلك، حَاوَل جاهدًا إفلات يَدِهِ مِنْ قَيدهَا، لَكِنْ لَمْ يَسْتَطِع، فَالْقُيُودُ مُحكَمَة، حَتَّى خصره وقدماه كانت مُحكمة القُيُود، ارتفع صوته بالآهات متألمًا من ضيقها، ولا يزال النمل في هجرته غير الشرعية، سمع خطوات مقترنة بصوت حك مفاتيح، تَحَس الصَّوْت جَنْبه الأيسَر، فَالْتَفَّ بِرَأسه يَمنةً حَتَّى أَصْبَح ذَقنه لصق كَتِفه، أغمض عينيه محاولًا التركيز مع الصوت، لحظات من ترقب وصمت، ارتفع فجأة صوت المفاتيح في محاولة لاستفزازه، لكنه لم يُحرِّك ساكنًا، ساد الهدوء المكان عدا صوت أنفاسه داخل الوشاح، ونبض قلبه المتسارع، ثم أربكته خطوات داخل الغرفة، ينصت لها فاقدًا القدرة على تحديد اتجاهها، رأى خيال شخص يمر من أمامه قاطعًا مسار الضوء المسلط عليه، صرخ حينها:

ـ إنت مين؟ وعايز إيه؟

سمع الرد:

ـ شششش.

ـ شكلك مش عارف أنا مين.

ثم صمت لثوانٍ ينتظر ردًّا، لكن لا مجيب.

ـ طبيعة شغلي تخليني متوقع أي شيء ممكن يحصل، حتى الموت.

صاح الآخر:

ـ طبيعة شغلك ولا نجاستك؟ عمومًا موت واحد زيك مالوش عازة، هتتحسب علينا واحد وانت صفر على الشمال.

صمت محاولًا فرز صوت المتحدث.

ـ سكتّ ليه؟ بتحاول تعرف أنا مين من صوتي؟

ردَّ «خطَّاب»:

ـ إنت بتقول هتتحسب علينا؟ أفهم من كدا إنك مش لوحدك؟!

ـ برافو.. بتمارس مهنتك وكأنك قاعد في مكتبك.

ـ إنت أكيد عارف لو في مكتبي كان زمانك متعلق من إيه...

ضحك الآخر وقاطعه:

ـ شكلك ناسي إنك موقوف من الخدمة.. عمومًا عجرفتك وجبروتك مش هينفعوك هنا.

ـ أنا عطشان.. عاوز أشرب.

ـ إنت فاكر نفسك في مكتبك بجد ولا إيه؟

هز رأسه بقوة ثم قال:

ـ طب شيل القرف دا من على دماغي، ولَّا خايف أشوفك؟

ـ أخاف منك ليه وانت مربوط زي الكلب؟

ـ طب خلاص شيله يا ابن ستين كلب.

سمع صوت خطوات تتجه نحوه مسرعة، ثم شعر به يقف خلفه، تَكَهَّنَ ببعض اللكمات أو صفعات عشوائية بسبب جملته الأخيرة، اهتزت قدماه توترًا ينتظر ردَّ فعله، تسرب إلى أذنه صوت همهمة غير مفهومة وكأنه حديث مستتر بين اثنين أحدهما يُهدئ من غضب الآخر، فاض عرقًا حتى صار ذقنه كصنبور مياه، انتفض حين اعتصر كتفيه، وانحنى مقتربًا من أذنه هامسًا:

ـ علِّي صوتك زي ما انت عاوز.. واشتِم براحتك.. هنا ماحدش هيسمعك، ولَّا تحب أغنيها لك؟! علِّي صوتك بالغنا.. لسَّة الأغاني ممكنة.. ممكنة. إيه رأيك في صوتي؟ أنفع أغني؟

رد بغضب:

ـ إنت شكلك مختل عقليًّا.

ـ العقل والجنون شيء نسبي يا «خطَّاب».

ثم بدأ يهمس له مجددًا:

ـ تعرف إن الأسد اللي في السيرك لو أكل بني آدم لازم ينضرب بالنار على طول.. عارف ليه؟!

أجابه دون تفكير:

ـ أكيد عشان عمل زيك واتعدَّى على أسياده.

ضحك صائحًا:

ـ لا للأسف يا «خطَّاب»، بينضرب بالنار عشان ألذ لحم في الدنيا لحم البني آدم، اللحم البشري هو الوحيد اللي مملّح رباني، وطالما استطعمه مرة مش هينساه أبدًا.

ثم مال واحتضن رأسه بذراعه اليسرى، وهمس في أذنه:

ـ عمرك دُقت لحم بني آدم قبل كدا؟!

ضاقت عيناه داخل الوشاح، ثم ردَّ في غضب:

ـ صدقني.. والله.. لو فكّيتني ممكن أجرب!

صفعه على مؤخرة رأسه وهو يقول بصوت أجش:

ـ أكل لحم البني آدمين مايليقش غير بالأسود، عمرك سمعت عن كلب أكل بني آدم؟!

استشاط غضبًا، وجمع عزيمته في محاولة لفكّ قيده، لكنه لم يستطِع:

ـ طب يا عم الغضنفر ما تديني فرصة أشوفك.

ـ يا سلام! رخيص والطلب رخيص.

قبض بيده على الوشاح ثم نزعه ببطء، انحنى «خطَّاب» برأسه مُغمض العينين غير قادر على مواجهة ضوء الكشاف المسلط عليه، تقاسيم وجهه كطفل جاء إلى الدنيا بولادة متعسرة، حاول فتح عينيه فاصطدم برؤية أقدام أشخاص آخرين مقيدين مثله، رفع رأسه مقاومًا حدة الضوء في عذاب، ظهرت له حينها صورة غير واضحة لأشخاص أشبه بالأشباح يجلسون أمامه، انحنى مرة أخرى لعدم استطاعته تحمُّل الضوء، ثم انقطع التيار، نظر من حوله فلم يستطِع رؤية أي شيء؛ فالانتقال من الضوء الشديد إلى الظلام الكاحل جعله كالكفيف، لا يرى سوى فُقاعات ضوئية وهمية تتطاير هنا وهناك، سمع صوت احتكاك كرسي معدني يزحف وسط الظلام، حدق بعين جاحظة أمامه مباشرةً

فلم يرَ سوى خيالات لأشخاص ساكنة مكانها غير واضحة المعالم، حضر الضوء فجأة عدا الكشاف المسلط عليه، ليكتشف أنه ليس المخطوف الوحيد؛ فهناك أشخاص غيره رؤوسهم مغطاة بالوشاح نفسه، تفصل بينه وبينهم طاولة بيضاء كبيرة.

****

مضى «منير» مُسرعًا بخطواتِ عاشقٍ تأخر عن موعده، استوقفته حركة عمال منهمكين بإزاحة مياه الأمطار خارج أحد المطاعم، تفادى المسَّاحات الخشبية واحدة تلو الأخرى وكأنها حواجز في دورة أولمبية، ساعده على اجتيازها طول قامته وخفة وزنه الملحوظة، وسط ضحكات العمال من حركته خفيفة الظل، التفت إليهم رافعًا كتابه بيديه، معلنًا أنه الفائز الوحيد بعبور الحواجز، ليصفق أحدهم، ويضحك «منير» بروحه البسيطة المحبة للحياة التي اشتهر بها في أزقة وسط البلد وحواريه. ابتلعت خطواته المسرعة تلك الأمتار القلائل التي تفصله عن معشوقته.. مقهى «أم كلثوم»، المكان المقدس بالنسبة له، الذي تتوقف عنده عقارب الساعة، نُحت اسمها على الواجهة نحتًا بارزًا، أقرب إلى جدارية أثرية من زمنٍ سحيق، اللهفة والفرح في آنٍ واحد ارتسما على معالم وجهه ذي الغمازتين. وقف على مدخلها للحظة يحتضن كتابه مُغمض العينين مستنشقًا الهواء المُشَبع برائحة القهوة المنبعث من مطاحن البن المجاورة، ارتجف كالمدمن في لحظات النشوة القصوى مغمغمًا:

ـ الله الله الله!

استقبله على الباب «ويزو» حاملًا على كتفه كومة من الجرائد لم يعد يقرؤها غير القلائل، وكان له بصمة في خطوته، يتَّكئ على يُمناه لِيعوّض قِصَر اليُسرى، رحَّب به قائلًا:

ـ عم الناس كلها اللي أكيد هينفّعني.. المصري اليوم ولّا اليوم السابع؟!

ربت «منير» على كتفه وقال بابتسامة تخجل:

ـ سامحني يا «ويزو» يا عسلية، النهارده معايا رواية عاوز أخلصها.

ـ بشوقك.

نظر «منير» داخل المقهى الذي تحول إلى مخبأ يؤوي رُوَّاده من غارات الشتاء العاتية، فلم يَمنَع المطر الغزير خُصُوبَة يَوْم الخميس مِن قَذْف عُشَّاق السَّهر لَيْلًا.

استندَ إلى الحائطِ يحكُّ نعليهِ بزاوية الرصيف ليزيلَ عنهما ما علقَ بهما منْ طينٍ، واحتجبَ خلف كفهِ الساندة إلى الجدار لوحة صغيرة نُقِشَ عليها: «أنشئتْ عام 1936م»، ولا يزال المقهى رغم كل تلك السنين يحتفظ بكثير من ملامح القاهرة القديمة، وعلى جدرانه لوحات فنية لمشاهير مثل «الكسار» و«نجيب الريحاني» و«إسماعيل ياسين»... وغيرهم، بينما نالت لوحة لـ«كوكب الشرق» جدارية كبيرة بمفردها، انخفض المقهى قليلًا عن منسوب الشارع؛ نظراً لقِدَمِه، وعلى بلاطه القديم نُصبت المقاعد الخشبية والطاولات الحديدية.

سار «منير» بين الحاضرين قاصدًا مجلسه الذي لا يتغير، وهو يشير بيده لرواد المكان هنا وهناك، مُرحِّبًا بهم كزعيم لقبيلة يتفقد رعاياه، تزامنًا مع صيحات «النادل»

المزعجة التي قاطعت صوت «كوكب الشرق» وهي تقول: «عوَّدت عيني على رؤياك».

صرخ حينها «جمعة»، ذلك الرجل الذي صبغ الشيب مقدمة شعره، وأكلت النيران نصف وجهه:

ـ يخرب بيت صوتك يا «أبو مازن».. مش عارفين نسمع الست منك!

علَّق «أبو مازن»:

ـ يعني يا عم «جمعة» مش عارف تسمع الست من صوتي وعارف تسمعها من صوت خبط الدومينو والطاولة؟!

قال «جمعة» بحنق:

ـ صوتك مسرسع قوي.. إنت صداع يا جدع.

ـ حقك عليَّ يا عم «جمعة»، بعد كدا هاوشوش الصنايعي في ودانه.

هتف الرجل ممسكًا قطع الدومينو بكلتا يديه التي لم تنجُ هي الأخرى من النيران:

ـ طب هات حلبة سادة.

صرخ بصوته الرنان بجوار أذنه:

ـ وعندك واحد حصى مغلييبي.

وضع «جمعة» قشاط دومينو وهو يغمغم:

ـ غور يلعن ميتين أمك.

أشار «منير» لـ«أبو مازن»، فحضر مسرعًا:

ـ أيوه يا فنان.. يومك مسكر معطر وكفاية كدا مش هاكتّر، أجيب لك قهوتك؟

ـ قبل القهوة، هات حتة وامسح التراب اللي على الكرسي والطقطوقة.

ـ يا سلام، من عينيَّ، في ثانية إلا ثانية.

تجاهل «منير» كلماته الرتيبة التي عفى عليها الزمن، وأخذ يختلس النظر إلى وجوه الحاضرين من خلال مرآة أمامه، ليمارس عادته في استقراء المشاعر من خلال تعبيرات الوجوه، انحنى في الزاوية القصيّة شاب أشقر ضاقت عيناه، وتجعد أنفه في نظرة اشمئزازية تجاه «جمعة»، فلم يُرْقُهُ أثر الحروق، وذلك الرجل البدين الذي تصبب عرقًا رغم أنف الشتاء، واتسعت عيناه ونفرت عروقه غضبًا خلال مكالمة لطليقته، التي أنصت لها بالسمع بعض الحضور، حتى تناثرت الضحكات المكتومة من بعض الشباب على شتائمه الكلاسيكية، القادمة من غياهب فيلم عربي قديم.. وبين هذا وذاك، جلس رجل كهل بمفرده يضع بين إصبعيه سيجارة لم تطأ فمه منذ أن أشعلها، حتى أوشكت أن تحرقه، تراكم رمادها وتماسك في شكل منحنى يشبه حال جسده المثقل بالهموم، دون أن يدري أحد في أي ملكوت يسبح، وعلى النقيض ذلك الشاب

الحالم الذي برقت أساريرُه وهو يستقبل على هاتفه رسائل محبوبته عبر تطبيق «واتس آب».

«هذَا هُو حال دُنْيانَا، مَا بَيْن حُبّ وكُره، ضَحك وَحُزن، غضب وَسَكينَة، شَهوَة واشْمئزاز، نَطُوف بينَهم كتعاقب اللّيل والنَّهار فِي مَدَار نحْسبه دَائِرِيًّا لَا ينْتَهِي، وَهُو فِي الحقِيقَة خط مُسْتقِيم لَه بِداية وَنغفل عن نِهايَته الحتْميَّة».

قفز من وجه لوجه مسرعًا حتى استقرت عيناه في المرآة على «سيد الونش» الذي يجلس خلفه ويحاصره بنظراتٍ مُبهمة، تأمله «منير» عبر المرآة وقال دون الالتفات إليه:

ـ لا مؤاخذة يا سعادة المستشار، ما أخدتش بالي منك وأنا داخل.

قالها متعمدًا دون الاستدارة لمواجهته، تلفَّت «الونش» يمينًا ويسارًا باحثًا عمَّن تعنيه كلماته، قبل أن يستدير الأخير نحوه قائلًا بابتسامة غامضة:

ـ هو فيه هنا مستشار غيرك يا «سيد» بيه؟

سَحق «الونش» سيجارته بطرف حذائه، ثم قال بغيظ:

ـ مستشار حتة واحدة؟! أنا يادوب محامي صغير على قدي.

رد «منير»:

ـ مفيش حاجة بعيدة عن ربنا.

ـ ونعم بالله.

ـ مفيش أخبار عن الواد «أنس»؟

بوجه غمرته معالم الارتباك، رد «الونش» منفعلًا:

ـ أنا ملاحظ إنك كل ما تشوفني تسألني عن الواد دا، هو أنا جوز أمه؟! فيه إيه يا «منير»؟!

ثم وقف «سيد الونش» ونقر بسبابته صدر «منير» مرتين قائلًا:

ـ وبعدين انت أكتر واحد كنت بتقعد معاه.. وتقدر تعرف ممكن يكون فين.. مش كدا ولا إيه؟!

ـ ما هو عشان كدا عرفت منه إنه كان بيقضي لك ساعات.

لم يفهم «سيد الونش» من أول وهلة، فضيَّق عينيه وتجعد أنفه ثم سأله:

ـ يقضي لي يعني إيه؟!

بمكرٍ ردَّ «منير» وهو ينقر صدره بسبابته كما فعلها:

ـ لا مؤاخذة، كان بيجيب لك حشيش!

ارتبك «الونش» حتى كاد يكمم فمه:

ـ إنت اتجننت ولا إيه يا «منير»؟! إنت مش واخد بالك بتقول إيه؟!

ـ لأ، واخد بالي، ومش بعيد لو عملت تحليل مخدرات للناس اللي في القهوة دي كلها، هتطلع بتشرب حشيش، ما عدا تلاجة الكوكاكولا اللي هناك دي.

رد «الونش»:

ـ أنا بس مش عارف انت شاغل بالك بالواد دا ليه!

ـ يا «سيد» بيه، أنا وانت عارفين إن الواد دا ابن ناس ووراه حكاية كبيرة.. مش كدا ولا إيه؟!

ـ طب ما يمكن يا جدع رجع لأهله تاني! عمومًا، أنا من آخر مرة شفته في القهوة وأنا ماعرفش عنه حاجة!

ربت «منير» على كتفه ثم انصرف، لم يبتعد قيد خطوتين حتى التفت إليه مرة أخرى قائلًا:

ـ طب هو جالك مكتبك من 10 أيام كدا؟

ـ لأ طبعًا، مين قالك كدا؟

ـ الواد «فهد» و«موزة» شافوه عندك في المكتب.

ـ دي عيال شمامة مرمية في الشارع طول النهار، هتصدقهم؟

ـ طب وإيه مصلحتهم إنهم يكذبوا؟

صاح «الونش» قائلًا:

ـ سجِّل المشاريب في النوتة يا «أبو مازن»، عاوز حاجة يا «منير»؟ أنا هامشي عشان جنبي قام عليَّ.

ـ سلامة جنبك يا «سيد» بيه.

قالها في أثناء ارتطام أكتافهما بعضها ببعض، ثم أقبل «أبو مازن» على «منير»:

ـ كله تمام يا فنان، المكان بقى زي الفل.

ـ شكرًا يا محترم.. هات القهوة.

جلس «منير» ملقيًا أغراضه على الطاولة مهمومًا بسرِّ اختفاء هذا الشاب، شيء في نفسه يحادثه بأن «الونش» يخفي أمرًا، يزداد يقينه يومًا بعد يوم كلما جادله، نظر إلى روايته بوجه عابس، تعكرت حالته المزاجية وذهب عنه شغف القراءة، انتبه مصغيًا إلى صوت «أم كلثوم» حين قالت: «وإن غبت يوم عني.. أفضل أنا وظني».

رفع رأسه متأملًا لوحة لكوكب الشرق وهي تعتصر منديلها، أخذ يتأملها حتى انتهى أسفلها، حيث يجلس شخص منغمس في قراءة جريدة، لا يظهر من ملامحه سوى أصابعه الممسكة بها، فقد كُتِبت له النجاة من اختبار استقراء الوجوه، كانت سطور الأخبار مبهمة ومتقاربة، ترسم شكل خيوط سوداء منتظمة نظرًا لبُعد المسافة، إلا أنه لاحظ صورة تعلوها كلمة «مفقود» مكتوبة بخط غليظ يستطيع قراءتها عن بُعد، هربت عيناه تجاه الصورة، لتتطابق مع إحدى صور مخزون ذاكرته الفوتوغرافية، حينها استجاب المخ معطيًا الأمر له بالصراخ: «أنس»!

****

كانت فيلا دكتور «زين عبد الهادي» أشبه بتصميم قصر عظيم لأحد ملوك بابل، غلب على كسائها الخارجي الطابع الحجري، حازت كل الشرفات زخارف زجاجية دقيقة ملونة، انتصب على مدخلها عمودان يرتكزان إلى كتلة من الجرانيت الأحمر المصقول، لهما هيبة تضاهي معابد الفراعنة، يتوسطهما دَرَج أبيض يؤدّي إلى باب خشبي ضخم مطرز بالزجاج الملون، وقف أمامه «منير» مترددًا في الضغط على زر الجرس، تحادثه نفسه بالرجوع عما هو مُقْدِم عليه، تمهَّل قليلًا، ثم سحب من أسفل إبطه جريدة نظر بداخلها لحظات، ثم أخذ نفسًا عميقًا انتفخ به صدره وضغط على زر الجرس في تأهب، لحظات من بعدها ظهر خيال شخص يتحرك من خلف الزجاج يتجه إلى الباب لفتحه، ظهرت له «شمس» التي كادت تضيء ببياض بشرتها وجهَه الأسمر، الشابة الحسناء التي عجزت مستحضرات التجميل عن إضافة جديد لها، زاده الأمر تعقيدًا حين بادرته بصوت ناعم:

ـ مين حضرتك؟

صمت وكأنه نسي حروف الهجاء، تمنى لو تجمَّد الكون من حوله ومُنحَ مبردًا وسكينًا وكومة من الطين ليبدأ في نحت تمثال لها، حاول جاهدًا جمع شتات نفسه بكلمة:

ـ أنا.. أنا..

فقالت بثغر باسم وعيناها لم تفارقا توتره:

ـ إنت حضرتك جيت عنوان غلط؟!

تورَّد وجهه الأسمر حياءً، ثم تساءل:

ـ مش دي فيلا دكتور «زين عبد الهادي»؟

ـ أيوه صح، وأنا «شمس» بنته.

رد «منير»:

ـ أهلًا وسهلًا يا فندم.

ـ تحت أمرك، ممكن أعرف حضرتك عاوز مين بالظبط؟

انحنى يلتقط الجريدة التي سقطت منه، ثم اعتدل وبدأ عَصَب عينه اليمنى بالتشنج من أثر توتره حتى لاحظته وهو يستعرض لها جزءًا معينًا من الجريدة، وأشار بإصبعه:

ـ أنا جاي عشان الخبر دا!

ـ إنت تعرف حاجة عن «أنس» أخويا؟

ـ أيوه يا فندم أعرف.

كغريق يتشبَّث بطوق نجاة، أمسكته من ذراعيه:

ـ هو فين؟!

ردَّ في حرج مشوب بثقة اكتسبها للتوِّ:

ـ طب هنتكلم على الباب كدا؟

ـ أنا آسفة.. اتفضل ادخل.

****

الفصل الثاني

كان «سيد الونش» متوسط القامة، يملك وجهًا دائريًّا، ذا بشرة داكنة وعينين متوَّجتين بحاجبين سميكين، له شارب منحه وقارًا ومظهراً يفوق عمره بسنوات، تفرقت على ذراعيه شعيرات كثيفة حلزونية مثل التي تفيض من صدره، له أنف ضيق قوقازي يفتقر دومًا إلى تهذيب الشعيرات المنسدلة منه.

جلس في غرفة مكتبه المكونة من مكتب قديم أسود اللون متهالك المنظر، أمامه مقعدان لاستقبال الضيوف، اهتزَّت خلفه ستائر النافذة، إثر تيار الهواء الناتج من مروحة معلقة في سقف الغرفة.

أخرج من درج مكتبه صندوقًا خشبيًّا صغيرًا مطرزًا بالصَّدف، ثم وضعه أمامه على المكتب، هتف على «موزة»، الطفل المشرد الذي كلَّفه بتنظيف مكتبه أسبوعيًّا، وأمره بإغلاق المروحة، ثم بدأ في تحضير سيجارته المفضلة، لا يستطيع بدء يومه دون شرب الحشيش، قاطعه «موزة»، وهو في آخر مراحل تكفين جثمان سيجارته بلسانه المبلل:

ـ الصالة بقت زي الفل يا عم «سيد».

نظر إليه وهو يضرب بقعر سيجارته سطح المكتب:

ـ نضَّفت الحمام كويس؟

رد «موزة» بثقة:

ـ ادخل شوفه.. هتنبسط.

قضم بين أسنانه فَتيلة تبغ التصقت بشفتيه ثم بصقها قائلًا:

ـ من هنا ورايح، لما تيجي تتصيَّر ابقى ارفع غطا القاعدة يا معفن!

هرش «موزة» مؤخرته وهو يقول:

ـ بارفعه.. بس أعمل إيه؟! بيرجع يقع تاني وأنا في وسط الشخة!

ضحك سيد الونش ثم أردف:

ـ طب ابقى اسنده بإيدك يا أبو شخة.

أشعل سيجارته ثم أخرج الدخان عبر أنفه:

ـ إنت ياض رايح تقول لـ«منير» إنت والزفت «فهد» إنكم شفتم الواد «أنس» عندي هنا في المكتب؟

حاول «موزة» المراوغة في الإجابة:

ـ «أنس» مين؟

ـ بتاع الفل والياسمين ياض، إنت هتستعبط؟! الواد «أنس» اللي كان شغال في قهوة أم كلثوم.

ـ هو الواد دا شمال ولا إيه؟!

نهره:

ـ انطق يا حمار، إنتم شفتوه هنا في المكتب إمتى؟

انتفض «موزة» قائلًا:

ـ ساعة لما كنت بتتفق معاه تروحوا مع بعض معمل التحاليل.

احمرَّ وجهه غاضبًا، وتغيَّرت ملامحه وكأن صاعقة من السماء أصابته، صاح في وجهه بكلمات متقطعة يتخللُها صوت السعال:

ـ اخرج من المكتب وماشوفش وشك هنا تاني.. غور ياض!

****

جلس «منير» كعادته في المقهى مستغرقًا في قراءة رواية «منافي الرب»، مستمتعًا بتدخين الشيشة بنكهة التفاح، حتى قاطعه أحد الأشخاص:

ـ حضرتك بتحب «أشرف الخمايسي»؟

نظر من خلف الكتاب، فوجد مَن قاطعه هو خادم الشيشة في أثناء تغييره الفحم، الفتى ذو الوجه الحديث في القهوة، شاب وسيم، ذو ملامح ملائكية، له بشرة بيضاء تفيض ببعض النمش وعينان زرقاوان ورموش بنية أغمق من لون شعره، رمقه بنظرات تحمل علامات استفهام كثيرة، ثم ترك الراوية جانبًا:

ـ وانت تعرف «الخمايسي» منين؟

ـ هو فيه حد يحب القراءة مايعرفش «إله السرد» في مصر؟

ضحك «منير» مستطردًا:

ـ على فكرة، أنا كنت في الندوة اللي قال فيها كدا.. هو كان بيتكلم عن الواقع الثقافي المصري اللي شايفه من وجهة نظره إنه مش بيهتم بالكُتَّاب المصريين، لكن بيهتم وبيمدح في كُتَّاب الغرب وبس، وكأنهم «آلهة»، فقال إذا كان الغرب بيصدِّر لينا آلهة في الأدب، فلازم إحنا كمان نصدّر آلهة برضه، وساعتها قال: «أنا مستعدٌّ أن أكون إله السرد في مصر»، والموضوع كان هزار.. المهم قرأت له إيه؟!

ـ قرأت له «انحراف حاد».

ضحك «منير» ساخرًا:

ـ هو مفيش انحراف حاد أكثر من اللي أنا شايفه قدامي دلوقتي.

ثم سأله عن اسمه، فأخبره بأن اسمه «أنس»، لم يسيطر «منير» على نظراته الاستنكارية، ولا سيّما بعدما ذكر أنه يدرس بكلية سياسة واقتصاد جامعة القاهرة.

ـ مش مصدقني؟! عمومًا دا الكارنيه بتاع الجامعة.

أومأ «منير» برأسه رافضًا قبول وضعه في ذلك المقهى وبين يده ما يُثبت صحة كلامه.

****

ـ بس يا فندم، ودي كانت أول مرة شُفت فيها «أنس».

ببكاء سألته أمه:

ـ طب هو فين يا ابني دلوقتي؟

تأخر «منير» في الرد، ثم وبتردد:

ـ حقيقي ماعرفش يا فندم؟

كان والد «أنس» يرمقه في أثناء حديثه، يحاول فرز شخصيته، لا يُعلِّق بشيء، مجرد نظرات أربكت «منير» وشتَّتته أحيانًا ثم هاجمه:

ـ ماتعرفش يعني إيه؟

ـ والله يا فندم ماعرف هو فين دلوقتي.

ـ وأنا أعرف منين إن اللي بتقوله دا حقيقي؟

تدخلت «شمس» لتهدئة حدة المحادثة:

ـ اصبر يا بابا، خلينا نسمعه الأول يمكن نوصل لحاجة.

ـ أصبر إيه بس يا «شمس»؟ بندور على أخوكي بقالنا ست شهور، ومانعرفش عنه حاجة، هو دا اسمه كلام؟

ـ يا فندم أنا حقيقي كنت متردد إني آجي هنا، وبعدين أنا عاذر حضرتك ومقدَّر الموقف اللي انت فيه.

بتلهُّف وقلة صبر، سمع «منير» الأم تقول:

ـ يعني هي الدنيا ضاقت بـ«أنس» ابني عشان يشتغل في قهوة؟! دا بيتكلم 3 لغات.

التقط الأب طرف الحديث وأكمل:

ـ كلام ما يدخلش عقل!

حملق «منير» إليهما مقاومًا غضبه من قسوة ملامحهما التهكمية ونظرات التشكيك، وأردف بهدوء:

ـ تحليلي يا فندم، إنه نوع من أنواع جلد الذات والتكفير عن شعور مكبوت جواه بالذنب.

ردَّت الأم قائلةً:

ـ طب كِّمل يا أستاذ أبوس إيدك! هو حضرتك قلت اسمك إيه معلش؟

ـ اسمي الحقيقي «عبد الله»، بس ماحدش يعرفه إلا ناس قليلة، الناس كلها عارفاني بـ«منير».

ـ طب كمل يا أستاذ «عبد الله» بعد إذنك.

****

تفحَّص «خطَّاب» الغرفة، فوجدها ذات جدران سوداء، فما أنسب لون الحِداد لحدث كهذا! لم يكن ثمة علامة يهتدي بها للتوقيت، سوى ساعته البيولوجية المتزامنة مع وظائف جسده وأنشطته، التي أكدت له أنه موعد غدائه، تخللت أنفه رائحة طلاء تغمر المكان استنبط أنها مدهونة حديثًا، ثُبتت في كل أركانها كاميرات، توسَّطت الجدار الذي يقع عن يمينه نافذة زجاجية كبيرة، مع باب يدل على غرفة مجاورة لا يظهر من تفاصيلها شيء، فالغرفة مظلمة من الداخل، ما جعل الزجاج عاكسًا كالمرآة، لم يستطع التعرف إلى أي من الأشخاص الجالسين أمامه، لا تزال رؤوسهم مغطاة بتلك الأوشحة، خَامِدين في أماكنهم كالأموات، ولا أثر للشخص الذي كان يحادثه قبل نزع الوشاح من على رأسه، انقطع التيار مرة أخرى، وتبعه صوت مفاتيح، لحظات وعاد التيار ليظهر أمامه شخص ملثم يرتدي ثيابًا سوداء لا يظهر منه سوى عينيه، يحمل حقيبة جلد بحامل على كتفه، وقف أمامه ينظر إليه في صمت.

ـ أنا قلت عطشان من بدري، عاوز أشرب.

وضع الملثم يده داخل الحقيبة، ثم أخرج قارورة مياه، وأشار بها تجاهه، ثم أرجعها إلى الحقيبة مرة أخرى، ثم نظر إلى الساعة في يده.

ـ بتبص في الساعة ليه؟ هو في معاد للشرب؟!

عقد الملثم يديه ليأخذ وضعية الانتظار، قسوة العطش ازدادت بعدما رأى المياه، فما أضعف من النفس البشرية أمام الهواء والماء! شعر حينها بأنه في أولى خطوات هزيمته النفسية:

ـ أنا عاوز أشرب، أظن دا طلب مشروع ليَّ.

قالها بنظرة متعطشة، تغيرت نبرته العجرفية، تحرك الملثم ببطء بشكل دائري حتى وقف خلفه، أخرج قارورة المياه ومدَّها تجاه فمه ببطء، هجم برأسه يختصر المسافة المملة، انقضَّ عليها بجنون، شرب بنهم محاولًا قتل ظمئه، وكأنها المرة الأخيرة له، أمسك بفكيه مقدمة القارورة ليتمكن من أخذ أكبر جرعة من المياه، كادت أسنانه تخلع حين بدأ الملثم في نزعها منه، تنفس الصعداء قائلًا:

ـ طب أنا هنا ليه؟ وعاوزين إيه؟ ومين الناس دي؟

لم يُلْقِ بالًا بما قال، واستكمل خُطاه، ووضع الحقيبة في منتصف الطاولة، وعاود الوقوف في المكان ذاته، ثم انقطع التيار مرة أخرى.

****

ثلاث قطط مجتمعة حول طبق من اللبن كان رابعهم «أنس»، يجلس بينها مستمتعًا بإطعامها داخل المقهى، يداعب إحداها بإصبعه كمداعبة أم لطفلها الوحيد، لا يبالي بالعالم من حوله؛ فهو في وقت راحته، وقف ينفض عن ركبتيه أثر جلوسه على الأرض، استقبله «منير» بابتسامة عريضة، ثم أشار إليه:

ـ فاضي ولّا مشغول؟

ذهب إليه:

ـ لأ أنا في البريك بتاعي.

رددها بعده بسخرية:

ـ البريك بتاعك! ليك حق.. واحد زيك هيقولها ازاي؟

ـ ماتزعّلش نفسك، أنا في الفُسحة بتاعتي. تمشي معاك الديباجة دي؟!

ضحك «منير»:

ـ شكلك مُغرم بالقطط.. مش كدا؟

ـ والكلاب كمان.

قالها بنبرة تحمل في طياتها حزنًا شديدًا، ثم شرد لبضع ثوانٍ، فأمسكه «منير» من ذراعه وأجلسه بجواره:

ـ ما لك؟ سرحت في إيه؟

ـ مفيش.

ـ هو إيه اللي مفيش؟! دا انت سافرت مش سرحت!

ـ افتكرت «كاسبر».. الكلب بتاعي.

ـ اسم جميل.. شكلك متعلّق بيه قوي.

ـ تقدر تعتبره ابني الصغير.

رد «منير»:

ـ معظم الناس اللي بتحب تربي الحيوانات بيكونوا «Sensitive».

ـ هنرجع نتكلم إنجلش تاني؟!

ـ لأ يا سيدي، بيكونوا مرهفين الحس.. تمشي الديباجة دي معاك؟!

ضحك «أنس» وقال:

ـ سبحان الله! إنت شبه «محمد منير» جدًّا..

ـ لعلمك اتعرض عليَّ مرة أكون دوبلير مكانه في إعلان، ورفضت.

ـ ليه؟! دي كانت ممكن تلعب معاك.. وتركب الترند في الميديا.

ـ أنا أصلًا شغال في الميديا.

ـ شغال إيه؟!

ـ Makeup Artist & Troukage.

ـ إيه الـ«Troukage» دا؟

ـ دا فن تصنيع ماكيتات وخدع السينما.

ـ إنت خريج إيه يا أستاذ «منير»؟

ـ فنون جميلة، وعندي مرسم كبير، بانحت فيه وبارسم، باعشق القراءة والموسيقى، من غيرهم ماعرفش أعيش، وأقولك على حاجة كمان، باحب التمثيل، بس عمري ما مثّلت حتى قدام المراية.

ـ ده انت طلعت «Talented» يا أستاذ «منير»!

ـ وبالمناسبة، أنا اسمي «عبد الله»، إنما «منير» دا اسم الشهرة، هاا، مش هتقولي بقى حكايتك إيه؟!

نظر إليه مبتسمًا ليبدأ سرد قصته:

ـ والدي يبقى الدكتور «زين عبد الهادي»، رئيس قسم التخدير والرعاية المركزة في القصر العيني، وأستاذ دكتور في جامعة القاهرة، بابا من الناس القليلة اللي ممكن تقابلهم في حياتك، إحنا تلات إخوات، أنا و«شمس»...

ثم أشار بكفٍ مقبوضة نحو قلبه قائلًا:

ـ و«عظيمة»!

ـ نعم؟! «عظيمة» دا يطلع إيه؟!

ـ أخويا الكبير، وهو فعلًا حاجة عظيمة، أصحابه مطّلعين عليه الاسم دا عشان ذكي جدًّا، وبيعمل حاجات

كتير عظيمة، أكتر واحد فينا شبه بابا، وبقاله أربع سنين في أمريكا.

قال «منير» مبتسمًا:

ـ وليه لما جيت تقول اسمه شاورت بإيدك ناحية قلبك؟!

ـ هو وأصحابه ليهم طقوس غريبة كدا، ودي واحدة منهم، تقدر تعتبرها لازمة بينهم اخترعوها لما بيجوا يقولوا أساميهم.

ـ أخوك في أمريكا ووالدك دكتور.. نقدر نقول إنك من عيلة مستريحة ماديًّا.

ـ الحمد لله.. والدي عوّدنا كلنا على الحرية من صغرنا، وكان بيدّينا مساحة كبيرة نتعلم من تجاربنا الشخصية، بابا ليه مقولة كان دايمًا بيفكرنا بيها: «الجهل بالشيء هو مصدر خوفك منه، اقتل خوفك بالتجربة».

علق «منير» قائلًا:

ـ أنا بصراحة مبهور بالكلام، وعجبتني طريقته.

أكمل «أنس» حديثه:

ـ عم عبده، حارس الفيلا، كان عايش معانا هو وأسرته...

قاطعه «منير» مرة أخرى:

ـ فيلا؟! يا عيني يا عيني!

ـ ما بلاش حقد طبقي بقى يا أستاذ «منير» وسيبني أكمل.

ـ معلش.. كمِّل يا سيدي.

ـ في يوم صحينا على صراخ طالع من غرفة عم عبده غفير الفيلا، جرينا كلنا عشان نشوف فيه إيه، لقينا «صفية» بنته تعبانة جدًّا، جرينا بيها على المستشفى، وهناك عرفنا إنها عندها فشل كلوي، وحالتها كانت صعبة، شُفت في عينيها المعنى الحقيقي لضعف الإنسان قُدام الألم، اتأثرت جدًّا بحالتها، ولسَّة لحد دلوقتي صوت صريخها جوَّه وداني.

أومأ «منير» برأسه منصتًا، ثم نظر «أنس» شاردًا إلى وهج الفحم فوق الشيشة وتابع:

ـ ساعتها، قررت أتبرع ليها بكلْية.

وصمت، استقام «منير» من انحنائه، ونظر إليه بحدة مفرطة:

ـ قررت إيه معلش؟! عيد تاني كدا.

ـ زي ما سمعت، قررت أتبرع لها.

ـ هو دا قرار سهل يا ابني؟ أكيد أهلك رفضوا طبعًا، خصوصًا إنها مش من بقية عيلتك.

ـ ودا اللي حصل.. والدي رفض، وقال لي: شيل الفكرة دي من دماغك وماتفتحش الموضوع دا تاني، كدا كدا إحنا مش هنقصر معاها لا في علاج ولا دكاترة.

ـ موقف والدك منطقي جدًّا، أي أب في مكانه كان لازم يرفض طبعًا، المهم، وبعدين حصل إيه؟

ـ حصل مشادة كلامية ما بيني وبين والدي، خصوصًا إني كنت شايف إنه أول مرة يتعدى على حريتي في قرار أنا عاوز آخده...

قاطعه «منير»:

ـ حرية إيه يا ابني! إنت عبيط؟ وطبعًا عملت مشكلة مع والدك بسبب الموضوع دا، مش كدا؟!

ـ بابا كسر جوايا حاجة اليوم دا بردّ فعله غير المتوقع.

****

انفعل دكتور «زين»:

ـ أنا فعلًا ماحسيتش بنفسي وأنا باضرب «أنس» بالقلم، صحيح أنا عمري ما مدّيت إيدي على حد من أولادي، لكن دا برضه مش مبرر لـ«أنس» إنه يسيب البيت، كان لازم يفهم إني خايف عليه، وأي أب في مكاني كان هيتصرف كدا، وإن كنت أسأت التصرف معاه دا برضه مش دافع ليه إنه يعاقبنا كلنا ويخلينا نلفّ حوالين نفسنا الفترة دي كلها، هو مين بيربي مين بس؟

حدجه «منير» مستنكرًا ما ورد في حديثه، فهو يخفي شيئًا من الحقيقة لم يستطِع الإفصاح عنه، لم يذكر أن ابنه كان متيمًا بحُبّ «صفية»، اكتفى بالنظر إليه فقط للحفاظ على ماء وجهه، ثم اتجه بنظره إلى صورة «أنس» في الجريدة الملقاة أمامه على الطاولة، وتبادل النظرات مع «شمس» التي كادت شفتاها تنطقان بما أخفاه والدها في حديثه.

تدخلت الأم قائلة:

ـ «أنس» ماسابش البيت علشان «زين» ضربه بالقلم.. «أنس» ابني ساب البيت علشان البنت ماتت

بقلب امتلأ بالحزن خرجت منها مصبوغةً بكل معاني الندم:

ـ أخويا «أنس» حس بعقدة ذنب ناحية البنت، وكأننا لو كنّا سمعنا كلامه وخليناه يتبرع لها كان دا ممكن يغيّر في حالتها أو كانت ممكن تعيش.

بشفتين مرتعشتين ووجه ارتسمت عليه معالم اليأس، سألته:

ـ طب يا ابني هو ليه ماجاش معاك؟ أو قل لنا مكانه واحنا نروح له.

صمت «منير» وقد فقد القدرة على إجابة السؤال.

****

الفصل الثالث

استيقظ «خطَّاب» من غفلته بعدما عاد التيار وأُضيئت الغرفة، سمع صوت أنين أحد المحتجزين معه، بدا له كمؤشر لبداية كسر وحدته بين هؤلاء الموتى، فجال يبحث بينهم عن مصدر الصوت، لم يستطِع تحديده. كلهم رؤوسهم مغطاة بتلك الأوشحة، فلا يملك سوى الانتظار، الوضع أشبه باستقبال مولود جديد في مشفى للولادة، تحرك الجالس عن يساره ببطء شديد كالسكير في حانة، يترنَّح رأسه بين كتفيه، حدق فيه ملاحظًا أن يديه غير مقيدتين مثله، لم تطرف عيناه للحظة، ظل شاخصًا بصره نحوه، ثم تلاشت حركته حتى السكون، بدت كسكرات الموت، ثم بعد ثوانٍ ثقيلة تحركت يد المحتجَز ببطء تتحسس الوشاح، ثم انتزعه من على رأسه، وبصوت كصوت الغريق يلفظ أنفاسه الأخيرة صرخ:

ـ فيه إيه؟! أنا فين؟!

شاب في أواخر الثلاثينات، ذو بشرة بيضاء وعينين عسليتين يحمل ندبةً بنِّية تحت عينه اليمنى، انتابه الهلع عندما وقعت عيناه على باقي المحتجزين، تفحَّص الغرفة بشكل جنوني، حاول الوقوف فلم يستطِع؛ فهو مُقيَّد من خصره وقدميه مثل الجميع بشكل يمنعه من الوقوف، عَايَنَ الجمع واحدًا تلو الآخر حتى استقرت عيناه على «خطَّاب» الذي استقبله بتلك النظرات التي اعتادها في التعامل مع المجرمين

والمشتبه بهم، نظرات لم تكن يومًا مصطنعة، ولكنها جزء من شخصيته التي لا يستطيع إخفاءها، ثم سأله:

ـ إنت مين؟

لم ينل من «خطَّاب» سوى صمته ونظرته الحادة.

ـ أنا أكيد بحلم.. إنت مين؟ والناس دي مين؟

خرج «خطَّاب» عن صمته:

ـ إنت ليه إيدك مش مربوطة؟!

صرخ الشاب بصوت جهور ضرب به جدران الغرفة:

ـ أنا فين؟!

ـ ششش.. اهدا يا ابني انت وبطّل عبط.

قالها «خطَّاب» بحزم، ثم كرر سؤاله:

ـ إنت ليه إيدك مش مربوطة؟!

رفع الشاب يديه على الطاولة؛ ليتأكد أنه لا يوجد أثر لأي قيود، وحاول بقوة فك خصره فلم يستطِع. ثم نظر تجاه «خطَّاب» الذي تعلقت عيناه بجدران الغرفة، فتتبّع نظراته ليكتشف أن كل زوايا الغرفة ثُبِّتت بها كاميرات، ظل شاردًا يحاول إيجاد أي تفسير، حتى باغته «خطَّاب»:

ـ إنت اسمك إيه؟!

لم يُجِبْه، وظل مشرئبًّا نحو الكاميرات، فأعاد عليه السؤال، نظر إليه ببطء وقال بسخط:

ـ اسمي «فارس»، وانت مين؟

ـ محمد خطَّاب.. رئيس مباحث.

ـ رئيس مباحث؟! هو إحنا مش في أمن الدولة؟

ـ تفتكر واحد كيوت زيك يدخل أمن الدولة ليه؟

رد «فارس» بسخرية:

ـ حلوة كيوت دي!

ثم وضع سبابته أمام شفتيه في إشارة إليه بالصمت.

ـ بقولك إيه.. دور رئيس المباحث دا فُكَّك منه، كنت نفعت نفسك.

ضغط على ضروسه واعتصر أصابعه مغلولًا؛ فلم يعتَدْ تلك اللهجة في حديث أحد، فمنحه ابتسامة باهتة بغير معنى، وأمره بنزع وشاح المحتجز الذي يجلس يساره؛ لكونه أقرب إليه، حاول «فارس» الوصول إلى طرف الوشاح، لكنه لم يستطِع، كان رأسه منطرحًا للخلف، فلم يستطِع الوصول إلى أطراف وشاحه، بينما لاحظ قلادةً معلقًا بها حرف الـ«K» تُطوِّق رقبته، حينها توقف عن محاولته، شعر وكأنه يعرفه، فسأله «خطَّاب»:

ـ فيه إيه؟!

نظر إليه قائلًا:

ـ مش طايل راسه.

****

توجَّه «منير» إلى باب الخروج العمومي للفيلا بمصاحبة «شمس»، شاردًا بذهنه فيما اقترفه بتلك الزيارة، وضع نفسه محل اتهام بلا داعٍ، ظل يردد مقولة عُمَر بن الخطَّاب: «ما ندمتُ على سكوتي مرّةً، لكنّني ندمتُ على الكلام مرارًا».

بينما هو كذلك، سمع صوتًا فصله عن توحده وعاد به إلى الواقع، صوت «شمس» الذي انتشله من شروده، نظر إليها يتأمل وجهها الذي زيَّنه بعض النمش الخفيف، يشبه ملامح «أنس»، وجه جميل، محاط بشعر بني مجدول، تحوَّلت بعض خُصله إلى اللون الذهبي:

ـ أستاذ «منير»، إنت سامعني؟

ـ أيوه معاكي.

ـ أنا بانده عليك من بدري.

ـ معلش كنت سرحان.

ثم تابع قائلًا:

ـ حاسس إني خلقت لنفسي مشاكل أنا في غنى عنها.

توقفت عن المسير، وضعت يدها داخل جيب تنورتها، فتوقف هو الآخر بالتبعية مُنصتًا لها:

ـ بص يا أستاذ «منير»، إنت لازم برضه تعذرنا، إحنا بقالنا كتير بندوّر على «أنس» وكلنا خايفين عليه، ومانعرفش عنه أي حاجة، واتصلنا بأخوه «عظيمة» في

أمريكا علشان ينزل يساعدنا في المصيبة دي، تخيَّل بعد دا كله حضرتك تيجي تقول إنك شفته وتعرفه، لكن ماتعرفش مكانه فين دلوقتي!

هزَّ رأسه وضرب بقدمه بعض أوراق الشجر البالية التي غطَّت النجيلة الصفراء، ورفع رأسه ينظر إلى متسع الحديقة، فلفت نظره كوخ خشبي كبير، كُتب فوق بوابته الصغيرة «Casper's Home»، تخيل «أنس» حين كتبها، ولا يوجد أثر لـ«كاسبر»، أوجس في نفسه خيفة أنَّ ضررًا ما حدث له بعد فراقه صاحبه، حدَّق عبر بابه الصغير، لكنه لم يرَ شيئًا سوى الظلام، فسألها عنه، أخبرته أنه يرقد داخل الكوخ، فقد تغيرت حاله منذ اختفاء «أنس»، ثم هتفت:

ـ «كاسبر»!

نظر «منير» داخل الكوخ في عمق الظلام، ولمعت بالداخل عينان حزينتان، ثم ارتفعتا متوهجتين بتوسطان ظلمة الباب عندما نهض، خرج متكاسلًا، كان متوسط الطول بالنسبة لفصيلته الـ«روت وايلر»، كان عريض ما بين الأذنين المنسدلتين، جبهة الرأس مقوَّسة نسبيًّا، رقبته ذات تشكيل عضلي واضح، كسا جسده الفراء الأسود اللامع وبعض الرقع ذات اللون النحاسي (الماهوغني الغامق)، فوق عينيه بقعتان بنيتان، سار إليهما منكّس الرأس حتى وقف على مبعدة من مَوطِئ قدمي «منير»، ثم رفع رأسه بعينين يصعب تمييزهما من بين الكسل والحزن،

اقترب وشمشم ما بين قدميه، ثم أخذ يحكُّ فراءه بسرواله، يستأنسه بفطرة حيوان بري، انحنى «منير» وأخذ يدلك رقبته، يداعبه كما لو كان يعرفه منذ سنين، سمع «شمس» تقول:

ـ أكبر دليل إنك كنت بتحب «أنس» اللي عمله «كاسبر» دلوقتي معاك.. الحيوانات عندها حاسة سادسة مش موجودة عند البشر.

اشرأبَّ برأسه إليها، ثم قال وهو يحتضن «كاسبر»:

ـ عمومًا أنا مقدّر اللي انتم فيه.. ومنتظركم بُكرة علشان نعمل جولة زي ما اتفقنا في المنطقة.. ونتأكدوا برضه إن اللي بقوله صح ومش باكذب عليكم.

ـ متشكرة لحضرتك جدًّا، وماتزعلش من أي حاجة حصلت النهارده.

نهض «منير» ومنحها رقم هاتف للتواصل معه، رقمًا مميزًا لا يمنحه «منير» لأي شخص.

****

توغلت أشعة شمس الشتاء النادرة في مقهى «أم كلثوم» في حضور ضعيف لروّاده الدائمين، تلك الساعات الصباحية المقتصرة على عابري السبيل وموظفي الأبنية الحكومية المجاورة. جلس «منير» كعادته في مجلسه نفسه، وإذا به يرى «سيد الونش» يجلس أمامه، افترُشت المنضدة أمامه بأوراق مبعثرة انكفأ عليها مشغولًا بالتدوين وإعادة ترتيبها، لم ينجُ من استقراء «منير» إياه، بدا متوترًا من معدل حرق النيكوتين بين شفتيه، تائهًا بين السطور، وهجر قهوته حتى فَترت، انتكس برأسه ينظر إلى بلاط المقهى وفي عينيه نظرة شاردة تفصل صاحبها عمَّا حوله، ظل في عزلته حتى وقف أمامه «أنس» وحال بينهما، رفع «الونش» رأسه ينظر إليه، ثم لمح بطرف عينه «منير» يجلس في الجهة المقابلة، ابتسم «الونش» حين انحنى «أنس» يهمس في أذنه، وزادت بهجته حين منحه شيئًا لم يتبيّنه «منير» عن بُعد، واستدار مغادرًا، فهتف به:

ـ «أنس»، تعالى عايزك.

ـ ذهب إليه باسطًا يده للترحيب، صافحه بنظرات تعجُّب، وقال بنبرة هادئة:

ـ واقف مع «سيد الونش» بتعمل إيه؟!

تردد للحظة، ثم قال:

ـ كنت بادّيله حتة حشيش.

ـ يخرب بيت دماغك.. دا انت أصلًا ما بتشربش

سجاير، تقوم تجيب له حشيش؟! إنت اتجننت؟!

مال بجسده تجاه «منير» قائلًا بصوت خافت:

ـ يا عم انت ليه مكبّر الموضوع؟ دا زبون في القهوة امبارح مسّى عليَّ بحتة حشيش وأنا مارضيتش أكسفه، وبدل ما ارميها وجّبت بيها مع «سيد» بيه، دا كل ما في الموضوع.

ـ أنا كذا مرة أنصحك تبعد عن الشخصية دي بالذات علشان حواليه كلام كتير وشغله مشبوه.. وانت ابن ناس.

ابتسم «أنس» قائلًا:

ـ والله يا «منير» انت حقيقي شخصية محترمة، وبعدين انت ليه واخد فكرة وحشة عن «الونش»؟ دا راجل طيب جدًّا ومريض، لو اتعاملت معاه هتعرف إن قلبه أبيض وبيحب الخير للناس.

وجد «منير» صعوبة في سماعه، وكأنه أصيب بالصمم، حتى إنه ركز على شفتيه اللتين تتحركان دون صدور صوت، ثم تلاشت صورته من أمامه تدريجيًّا حتى اختفى تمامًا كالأشباح، فنظر إلى الجهة المقابلة، حيث كان يجلس «سيد الونش»، فوجده قد تلاشى هو الآخر، أدرك أنها مجرد ذكرى عابرة أتته لتشابُه الأجواء نفسها.

وقف شاب ملأ هيكلُه فراغَ باب المقهى، أقنع أشعة الشمس بعدم المرور، أشار بيده إلى أحد العاملين، فهرول

إليه مسرعًا، بدا عليه الثراء، كان يرتدي حذاء ذا رقبة طويلة له طابع هوليوودي، يرتدي قبعة حديثة مطرزة بأحرف إنجليزية، حتى بنطاله لا يبدو أنه صناعة محلية، بنيانه يوضح كم تكبَّد من أموال حتى وصل به إلى هذا الهيكل المثالي، فهو غير مكتظ بالعضلات ولكن متناسق، كان ذلك كفيلًا بلفت نظر «منير» إليه حين بدأ الحديث مع عامل المقهى، ثوانٍ معدودة وأشار العامل تجاه «منير»، فاقترب الشاب تجاهه في عجالة.

****

انقطع التيار في الغرفة، وبعد لحظات تسرَّب إليهما عبير عطر جذاب، ونمى إلى مسامعهما صوت خطوات كعب أنثوي رنان لا يحتاج إلى خبير أصوات، زاد عبق العطر في المكان كله، مضت في الظلام بقدمين تحفظان كل شبرٍ في الغرفة، استقرت خلف «فارس»، علم ذلك من زفيرها المعطر، ثم استشعرها تُلامس مقعده من الخلف، وانحنت تهمس في أذنه:

ـ إزيك يا «فارس»؟

قالتها كما الساحرات، ردَّ في ثبات:

ـ حلوة ريحة البرفيوم.. اسمه إيه؟

ضحكت في سخرية:

ـ اسمه عطر الموت.. تحب تجرَّبه؟

ـ العطر؟

ـ لا يا «فارس».. الموت.

التفت تجاه صوتها في الظلام، ثم أردف:

ـ على كدا بقى أنا باكلم ملك الموت!

داعب زفيرها خصلات شعره حين قالت:

ـ إنت مصدق إن فيه ملايكة ومنهم ملك الموت؟!

ثم ضحكت وتابعت:

ـ تعرف إيه الأصعب من الموت؟!

ردَّ «فارس» في ضجر:

ـ صوت العاهرات في الظلام.

طوَّقت رقبته في لمح البصر بحبل غليظ، ولم تخدمه يده في الإفلات منها، ثم استشعر أطراف قدميها تلامس مؤخرته، وسحبت الحبل للخلف مستندةً بإحدى قدميها على مؤخرة المقعد حتى ضاق الخناق به، ثم قالت:

ـ الأصعب من الموت هو انتظاره.

سمعها «فارس» وهو على حافة الاختناق، ثم أفلتته حين سمعت غرغرة الموت، انطرح على الطاولة يلفظ أنفاسه بصعوبة، ثم عادت الإضاءة.

بحث «خطَّاب» عنها في كل أرجاء الغرفة، لم يجد غير «فارس» منطرحًا على الطاولة، يسيل من فمه لُعاب، يُحدِّق فيه برأسه الملاصق للطاولة، ثم ضغط بذراعيه واستقام في مجلسه، ثم رفع رأسه إلى سقف الغرفة وصرخ:

ـ طب عاوزين إيه؟!

التفت من بعدها تجاه «خطَّاب» يقول:

ـ إنتي مين؟ وعايزة إيه؟

أدرك «خطَّاب» أنها تقف خلفه، تحركت عن يمينه حتى وصلت خلف أحد المحتجزين، ثم نزعت عنه الوشاح

المغطى به رأسه، كانت امرأة ملثمة لا يظهر منها غير عينيها، مدَّت يدها إلى الحقيبة وسط الطاولة، لإخراج قارورة صغيرة بيضاء في حجم إصبع اليد، حاولت إفاقته بوضع فوَّهتها أقرب ما يكون إلى أنفه، ثم ذلك في ترقُّب منهما، ظل «خطَّاب» يحملق إليها، تجاهلته، ثم أرجعت القارورة إلى الحقيبة مرة أخرى

بدأ الشخص في الإفاقة مترنحًا، رفع جفنيه لتقع عيناه على «فارس» الجالس أمامه مباشرةً، أخذ يتمايل برأسه، ظهر متلعثمًا غير قادر على التحدث من أثر التخدير.

ـ أهلًا أهلًا «عبد الله» بيه.. ولّا تحب أقولك يا «منير»؟!

قالها «خطَّاب» حين بدأ في استيعاب وعيه، فسأله «فارس»:

ـ إنت تعرفه؟

ـ طبعًا.. المتهم الأول في قضية قتل واحد اسمه «سيد الونش».

اعترض «منير» متلعثمًا من أثر التخدير:

ـ أنا ما قتلتهوش.

****

كانت كافيتريا الحرية مصممة على الطراز الأمريكي، امتازت بواجهات زجاجية كبيرة مُطلة على الطرقات الأمامية والجانبية، كان للبار النصيب الأكبر في التصميم الداخلي، تناثرت بين أركانه المقاعد والطاولات ذات الطابع الغربي.

جلس «سيد الونش» على إحدى الطاولات في ركن خُصص للمدخنين، فاضت مِطفأته بأعقاب السجائر، قد قضى نحب الأخيرة في علبته الثانية، يراقب ساعته في رسغ يده، تجلى على ملامحه التوتر والقلق، وكأنما شُكّلت أعصابه من وهن، أشار إلى أحد العاملين وأخبره برغبته في احتساء قهوته الرابعة، ثم طلب منه إحضار علبة سجائر، انصرف العامل بعدما أبلغهم بقهوته، وقف أمام الباب معطيًا الفرصة لأحد الزبائن بالدخول بشكل تأدُّبي، ظل الرجل في مكانه يبحث بعينيه داخل المكان، ثم سأل العامل عن «سيد الونش»، فأشار إليه على طاولته، مضى إليه ثم جالسه بعدما صافحه بيد باردة، نظر إلى المطفأة التي غمرتها الأعقاب بشكل هرمي قائلًا:

ـ حرام عليك، صحتك يا «سيد»!

بوجه يفتقر إلى الهدوء:

ـ هو انت تعرف حرام وحلال زينا كدا؟!

ـ أوبّا! كدا البداية مش حلوة..

ـ دي مش بداية.. اعتبرها النهاية لو حبيت.

استند بذراعيه إلى الطاولة، ومال برأسه تجاه «الونش» متسائلًا:

ـ هو «مناع» نصب عليك في فلوس؟!

ـ فلوس إيه؟ هو أنا جايبك النهارده عشان فلوس؟!

ـ أمال عاوز إيه؟! أنا مش فاضي للهري بتاعك.

قالها ضاربًا المنضدة بكفيه، مما أثار غضب «الونش»، فصرخ فيه:

ـ لأ، إنت لازم تفضالي بدل ما أخربها على دماغكم كلكم.

التفت يمينًا ويسارًا، ثم قال:

ـ ما تجيب اللي في بطنك يا «ونش».. وتقول عاوز إيه!

ثم ابتسم بمكر واقترب منه عبر الطاولة، ثم همس:

ـ ولّا تحب أجيب أنا اللي في بطنك؟!

رد «سيد»:

ـ عاوز أعرف إيه اللي حصل بالظبط!

أطال النظر إليه في صمت حذِر، ثم هاجمه:

ـ مالكش فيه، وبعدين سيبك من أسطوانة التهديد اللي شغال فيها بقالك كام يوم.. مش هتنفعك.. وهتوديك ورا الشمس.. خدلك قرشين تاني واسكت.

قبض «سيد الونش» أسفل الطاولة على فخذه بقوة، قائلًا:

ـ لما هاروح ورا الشمس هتكونوا كلكم هناك قبلي، فاهم؟

حاول جاهدًا نزع يده من على فخذه، في صراع مستتر أسفل الطاولة، قاطعهما ذلك العامل بوضع علبة السجائر أمامهما فأسكتهما، متسببًا في هدنة بينهما.

ـ أعلى ما في خيلك اركبه يا «سيد».

قالها ونهض من أمامه وانصرف، وترك «الونش» كالجمر يلفظ نارًا.

****

انطَرَح «منير» عَلَى أرِيكَتِهِ وَسَط مرسمه مُلقيًا بِرَأسِهِ بَيْنَ كَفَّيْهِ المتشابكتين يَنْظُرُ إلى السَّقف، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مُتَّسَعٌ فِي الأرِيكَةِ لِاحْتِوَائِه، اضْطُرَّ لإِخْرَاجِ مَا تَبَقَّى مِنْ سَاقِيه خَارِجَهَا.. تحاصره تِلْكَ التَّمَاثِيلُ الَّتِي لَمْ يَسْتَكْمِلْ نَحْتَهَا بَعْدُ، ومئات اللوحات الَّتِي بَاءت بِالفَشَل، فاحت رَائِحَةُ الألوَان الَّتِي لطَّخت جُدْرَان المرسم وَكَأَنَّ طِفلًا عَبَثَ هنا، غارقًا في بحر أفكاره، تَجُول بِخَاطِرِه أفْكَار مُشوَّشة، انعقدت نصب عينيه كل الشياطين الموكلة بتشتيت البشر، يخاطب نفسه متسائلًا:

ـ مَاذَا اقْتَرفَت يداي؟ هَلْ كَانَ يَنْقُصُ حَيَاتِي مَزِيدُ

مِنَ الغُمُوض، أم حُلت كُلّ مشاكلي لأزيدها وَاحِدَة؟ مللتُ ذلك الفضول القاتل والتقصّي خلف المجهول، فما اغتنمتُ سوى ملامة النفس ومرارة العيش، الندم هو الإرث الطبيعي لمخلوق مثلي.. يحادثني شيء بداخلي عن هذا الشاب، شيء لا أفهمه، ولكني شعرت به في أول لقاء بيننا، شعرت بأني أعرفه، أسرني ببراءته وشجاعته وصدقه، ربما يشبهني، أو ربما أجد فيه ما أفتقده، أو هو قدري، يجب عليَّ الاستمرار فيما بدأت، فلن يكون مصيره مثل تلك الأصنام التي عجزتُ عن استكمالها، ولا مثل تلك اللوحات التي وقفتْ شاهدة على قبر إرادتي.

باغته دقات الباب في وسط تلك الموجات الفكرية، ذهب وفتح للصغيرين «موزة» و«فهد»، فأذن لهما بالدخول دون المساس بأي شيء في المرسم، أشار إليهما بالجلوس على أريكته، ثم ذهب إلى إحدى الغرف، وعاد حاملًا مقعدًا خشبيًّا وضعه أمامهما وجلس متخذًا وضعية المحقق:

ـ عاوز أعرف كل حاجة حصلت ما بين «سيد الونش» والواد «أنس».

نظر الصغيران بعضهما إلى بعض، ثم سأله «فهد»:

ـ هو انت يا عمنا تعرف الواد «أنس» كان بيبات فين؟!

ـ أعرف إنه كان بيبات في القهوة.

ـ لأ.. دا كان أول كام يوم جه فيهم بس.

ـ أُمال كان بيبات فين يا «فهد»؟!

ـ كان بيبات في مكتب «سيد الونش».

ـ وانت عرفت منين؟!

تدخَّل «موزة» في الحديث قائلًا:

ـ أنا اللي عرفت.. كان مخصص له أوضة في مكتبه، وكان محرَّج عليَّ أهوِّب ناحيتها، وعرفت بالصدفة.. مرة كان سايب باب الأوضة مفتوح وشُفت «أنس» نايم فيها على مرتبة في الأرض.

قبض «منير» على كتف «موزة»:

ـ عاوزك تحكي لي كل كلمة سمعتها ما بينهم.

ـ بص يا عمنا، «سيد الونش» دا حلاتجي كبير، وكنت باحس إنه بيلف ويدور على الواد دا.. مرة دخلت عليهم كان بيقول له لازم نروح معمل التحاليل.

سأله «منير»:

ـ معمل تحاليل إيه؟! تعرف اسمه؟!

ـ أظن كان اسمه حاجة «سكان».. بس مش فاكر.

ـ طب تعرف إيه تاني؟

****

توجَّه «منير» إلى مكتب «الونش»، وقرَّر مواجهته بما

علم من الصغيرين، لم يكترث بعواقب تلك المواجهة، ولا يبالي برد فعله أيًّا ما كان، يريد معرفة الحقيقة مهما كلَّفه الأمر، وصل أمام مبنى مكتبه القابع في شارع منصور بباب اللوق، ثم رفع رأسه للدور الخامس عند لافتة سوداء يصعب تمييزها وسط عشرات اللافتات، مكتوب عليها «مكتب محاماة سيد الونش»، نظر إلى ساعته فوجدها الثالثة عصرًا، لحظات من التردد تلاعبت بحماسه، لكنه سرعان ما تغلَّب عليها، توجَّه إلى باب العمارة ليصعد ذلك السلم العتيق الذي تآكل دَرَجه من أثر آلاف الأقدام، بينما لم ينتهِ من الوصول إلى منتصف الدور الأول وإذا به يسمع صوت ارتطام شديد خارج المبنى، فعاد مسرعًا إلى الخارج، فلم يجد ما توقَّعه، كان الصوت أقرب إلى تصادُم سيارتين، اضطرب الشارع اضطرابة عنيفة، وسرعان ما استقرأ أعين الناس فوجدها تشير إلى السقف الصاج المخصص لحماية المصلّين أمام المسجد، لفت نظره سكان العمائر المحيطة الذين اقتحموا شُرُفات منازلها ليشاركوه فضوله في البحث عن مصدر الصوت، هرع «منير» متخطيًا الجموع، ثم تسلَّق أحد السلالم المخصصة لصيانة السقف، وقف مصدومًا واشرأب حين وجد «سيد الونش» منطرحًا يلفظ أنفاسه الأخيرة، كان منكفئًا على وجهه والدماء تسيل منه، تجري في ممرات الصاج المعرجة بعشوائية، كان ساكنًا إلا صدره يعلو وينخفض بجنون.

«حلاوة روح»، غمغم بها «منير» في نفسه، تزحزح قيد

قدمين حتى تنكشف له معالم وجهه، تلاقت أعينهما، فارتعشت شفتا «الونش» لثوانٍ، تقدَّم صوبه مسرعًا وانحنى له، كان يهمس بكلمات غير مسموعة، فاقترب منه أكثر حتى سمعه يهمس بحروف مضمورة ليس لها معنى، ثم زفير بلا شهيق.

وقف «منير» أعلى السقيفة ينظر إلى بوابة المبنى مراقبًا إياها، توقَّع هروب الفاعل في ذلك التوقيت المكتظ بتجمُّع المارة إثر الحادث، قفز إلى الأرض مهرولًا تجاه البوابة قاصدًا مكتبه، وعند وصوله وجد الباب غير مغلَق. على الرغم من ذلك دفعه برجله ليتحاشى أي بصمات في مسرح الجريمة، تأكد أن المكتب خالٍ، لكن سرعان ما امتلأ بسكان العمائر وأصحاب المحال المجاورة.

****

كان صوتها صدمةً لـ«خطّاب»؛ يعرفه جيدًا، صوت مميز له، يحفظه عن ظهر قلب، لقد بات لساعات وليالٍ يسمعه، صوت ارتبط بمشاعره وغرائزه الحيوانية، علَم الآنَ كيف جاء هنا، تيقَّن من أن تلك المرأة كانت محطته الأخيرة، نظر إليها محاولًا إيجاد أي تفسير، يراقب خطواتها المحسوبة، حتى وصلت خلف المحتجز الذي يجلس أمامه، واستندت بكفيها إلى كتفيه، ثم أمسكت بطرف وشاحه ونزعته، رجل بدين أصلع الرأس ذو حاجبين ملتصقين، لا تكاد رقبته تظهر من الشحوم المتهدلة أسفل ذقنه، شفتاه غليظتان نادرًا ما تراهما إلا في وجه الزنوج.

احتضنت وجهه بكفيها، ثم رفعت ذراعيها في الهواء كأجنحة الصقر قبل الانقضاض على فريسته، ثم صفعته بكفيها، ليدوي في الغرفة صوت المهانة في إفاقته، ارتسمت على وجنتيه أصابعها العشر، رغم ذلك لم يُحرِّك ساكنًا، عاودت رفع ذراعيها في الهواء للبدء في الجولة الثانية للإفاقة، فقاطعها «فارس»:

ـ مفيش طريقة غير دي علشان تفوّقيه؟!

اخترق أذنيه صوت الصفعة الثانية بلا رحمة، مما أجمه.

ـ مين فيكم يعرفه؟!

سألتهم محتضنةً بكفيها وجهه الذي تحوَّل إلى مؤخرة قرد، لم يُجِبْها أي منهم. لم تجد مفرًّا من استخدام القارورة في إفاقته، ففعلتها، وأصبح على مشارف استعادة وعيه،

استفاق ينظر حوله قائلًا بغثيان:

ـ أنا فين؟

ثم وقعت عيناه على «خطَّاب» الذي فشل في منحه رسالة بصرية بإلجام لسانه، لكنه صرخ قائلًا:

ـ «خطَّاب» بيه؟! فيه إيه؟!

والتفت يمينه، فسبقه «فارس» قائلًا:

ـ أهلًا يا دكتور «جمال».

أشعلت الوجوه توترًا بوَقْع نظرتها المتسلِّلة من وراء اللثام قائلةً:

ـ طب كويس، أديكم طلعتوا تعرفوا بعض.

نظر إليها «فارس» وأردف:

ـ خطف رئيس مباحث وعضو مجلس شعب سابق، ما شاء الله.. دا الموضوع كبير.

صاح «منير» قائلًا:

ـ أنا ماعرفش غير «خطَّاب» بيه علشان كان يحقق معايا في قضية «سيد الونش».

ردَّت عليه الملثمة في تهكُّم:

ـ وسابك تطلع براءة وطرخ على الموضوع.

بنبرة محقق سألها «خطَّاب»:

ـ وانتي تعرفي «سيد الونش» منين يا «مريم»؟ دا لو كان اسمك «مريم»!

ـ أنا أخت «سيد الونش» يا «خطَّاب».

ـ طب كنتي فين أثناء التحقيق؟

ـ دي قصة طويلة هتعرفها بعدين.

ثم أخذا يتبادلان النظرات في تحدٍّ وترقُّب، قاطعهما «جمال منتصر»:

ـ مش فاهم حاجة.. إحنا فين يا «خطَّاب» بيه؟

ـ إحنا في حفلة تنكرية جنابك!

قالها بسخرية وغضب، ثم بدأ المحتجز الأخير في الترنُّح برأسه للتأهب لدخول أجواء الحفل! مال برأسه للأمام حتى أصبح أقرب ما يكون إلى يد «فارس»، فانتزع الوشاح من على رأسه، ثم دفعه من جبهته بإصبعه ليكشف عن وجهه للجميع، شاب في أواخر الثلاثينات ذو شعر أسود ناعم، عيناه جريئتان، ذو وجه جذاب رغم صرامة ملامحه، مفتول العضلات إلى حد التساؤل: كيف اختطفوه؟ دوى صوته في الغرفة بالآهات متألمًا كالمستيقظ من عملية جراحية، استعاد وعيه تدريجيًّا حتى اصطدم بواقعه الأليم، طافت الملثمة حولهم قائلة:

ـ كلكم تقريبًا عرفتم إنتم هنا ليه؟

ردَّ «جمال منتصر»:

ـ لأ أنا مش عارف.. وعاوز أعرف أنا جيت هنا ازاي!

سأله «خطَّاب» مستنكرًا:

ـ معقول مش عارف جيت هنا ازاي؟

ردَّت الملثمة:

ـ نفس الطريقة اللي جيت بيها يا «خطَّاب».

وجد «فارس» فرصة جيدة ليسأل:

ـ طب أنا موجود هنا ليه؟!

ردَّت سؤاله وهي في الشوط الثالث من الطواف حولهم:

ـ كلكم موجودين لسبب واحد، وأظن كلكم عارفينه.

قالتها بمرورها خلف المحتجز صاحب القلادة، فسألها:

ـ أنا مش فاهم حاجة! إنتي مين؟

حينها ارتفع في الغرفة صوت الضجيج، يتحدثون جميعًا في الوقت نفسه وبالجُمل الاستنكارية نفسها، بدأت مرحلة الهرج، حالة من الغضب والفوضى عمَّت الغرفة، بكل هدوء مدت «الملثمة» يدها داخل الحقيبة، وأخرجت صاعقًا كهربائيًا، صعقت به المحتجز صاحب القلادة، فانكبّ على الطاولة من أثر الصعق، فصمت الجميع كصمت القبور.

ظل «خطَّاب» ينظر إلى الشاب المنطرح على الطاولة حتى خرج عن صمته قائلًا:

ـ لو وجودنا هنا عشان تعرفوا مين قتل «سيد الونش»، أهو قاعد جنبي، ممكن بكل بساطة تاخدي تارك منه.

نظر إليه «منير» مستنكرًا كلامه:

ـ أنا بريء من دمه، وأظن تحقيق النيابة أثبت دا.. وبعدين انت ازاي تقول كدا كرجل قانون؟!

وقفت الملثمة خلف «منير»:

ـ موضوع أخد التار دا من غير معرفة الحقيقة كان أسهل حاجة.. كان زمانكم كلكم في توابيت تحت الأرض.

صاح «جمال منتصر»:

ـ طب أنا مال اللي جابت أمي بالحكاية دي؟!

ردت عليه الملثمة في غلظة:

ـ الإنكار والكذب شيء طبيعي.. وعاملين حسابه.. كلكم اشتركتم في قتل «سيد».. كل المطلوب منكم الاعتراف أمام الكاميرات دي.

اعترض «فارس» قائلًا:

ـ ما رئيس المباحث ذات نفسه بيقول لك اللي قتل أخوكي قاعد على يمينه، عاوزة إيه تاني؟!

ـ لما هو اللي قتل أخويا، خرج ليه أثناء التحقيق، رغم اعترافه إنه كان موجود في نفس توقيت الحادث؟!

رفع «منير» حاجبيه ينظر إليها بغضب:

ـ عشان الكاميرات في المحلات اللي تحت أثبتت إن توقيت دخولي وخروجي من العمارة غير كافي لارتكاب الجريمة، خصوصًا إن مكتبه في الدور الخامس.

حاول «خطَّاب» زعزعة خطة خطفهم قائلًا:

ـ لازم تبقوا عارفين إن الاعتراف تحت تهديد أو ضغط لا يؤخذ بيه في القضاء.

ضحكت ثم أردفت:

ـ خانك ذكاءك يا «خطَّاب».. لو فاكر إن إحنا خاطفينكم عشان القضاء تبقى ساذج، تقدر تعتبر نفسك في محاكمة استثنائية قوانينها مختلفة كتير عن اللي تعرفه ودرسته.. قوانين خاصة بالغرفة دي بس.. كل شيء هنا مباح لحد ما نوصل للحقيقة.. ما تستعجلش.. كل شيء معمول حسابه.

سألها «خطَّاب»:

ـ أمال فين الراجل اللي كان بيكلمني في الأول؟!

ردَّت عليه بثقة:

ـ أي واحد فيهم؟!

ابتسم «خطَّاب» ثم منح «فارس» نظرة خاطفة.

ضَحكت وهي تقول:

ـ شَكَّك في اللي حواليك هيسهِّل علينا حاجات كتير.

****

الفصل الرابع

جلس «منير» داخل كافيتريا «الحرية» على المقعد الملاصق للبار منحنيًا حتى كادت عظمتا كتفيه تخترقان قميصه من الخلف، حين انكبَّ على ورقة يُدوِّن بها أطروحات أفكاره، استمرت قدماه في الاهتزاز لا إراديًّا، توقف عن الكتابة وشرد بذهنه يتلاعب بالقلم بين أصابعه، بينما هو كذلك زحف فنجان القهوة ما بين ذراعيه، زج به عامل البار ببطء قاصدًا مداعبته، فطوى ورقته؛ خوفًا من تلفها.

ـ ما لك يا «منير»؟!

ـ شوية شقلبة وحواديت يا «بوجي».

ـ حواديت تاني؟! اسمع نصيحتي يا «منير»، وخف شوية من موضوع الروايات اللي واكلة دماغك.

كالذي ينصحك للذهاب إلى طبيب أسنان وأنت تشكو من ألم الفراق! نظر إليه «منير» يتدبر تفاهته وكظم غيظه حتى ينال مبتغاه منه، ثم تبسَّم:

ـ معاك حق، المفروض أخفّ من الروايات شوية.

ـ طب قل لي.. كنت عاوزني في إيه يا «منير»؟

ـ تعرف «سيد الونش»؟ مش كدا؟

ـ أيوه أعرفه، وأعرف أخته كمان.

هبط فنجان القهوة على البار مغادرًا شفتي «منير»، ثم نظر إليه:

ـ أخته؟!

ـ أيوه، أخته الوحيدة.. إنت ماتعرفش إن ليه أخت تحل من على حبل المشنقة ولا إيه؟

شرد «منير»، ثم بشكل لا إرادي أردف:

ـ أمال ماظهرتش ساعة التحقيقات ليه؟

ـ تحقيقات إيه؟ مش فاهم.

صمت «منير» لبضع ثوانٍ، ثم اقترب منه ببطء:

ـ سيد الونش اتقتل.

ـ يا راجل؟! اتقتل؟! إزاااي؟!

ـ اتحدف من شباك مكتبه.

ـ يا نهار بُن غامق.

قالها بصوت عالٍ، فخبط «منير» بكفه سطح البار برفق حتى يخفض صوته:

ـ عاوز أوصل لأخته.

ـ ما تروح بيتهم اللي في القلعة.

ـ تعرف عنوانه؟

ضحك عامل البار:

ـ أنا حافظه مش عارفه.

أخرج منير ورقته المطوية، ثم أمره بتدوين العنوان عليها، ثم في أثناء انشغاله بكتابة العنوان سأله:

ـ إنت عارف طبعًا إن «سيد الونش» ماكانش ليه قعدة غير هنا وقهوة أم كلثوم؟

رفع العامل رأسه قائلًا:

ـ آه، كان بيقابل هنا ناس كتير.

ـ عاوز أعرف كان بيقابل هنا مين، لو تعرف تساعدني!

بملامح استنكارية رد «بوجي»:

ـ وانت هتستفاد إيه يا «منير»؟ ولّا ناوي تشتغل رئيس مباحث؟

ـ معلش يا «بوجي» استحملني.

ـ بص يا «منير»، آخر مرة «سيد الونش» جه هنا كان من حوالي عشرين يوم، كان قاعد هناك على الترابيزة دي، وفضل مستني كتير، ولمّا سجايره خلصت نده عليّ عشان أجيب له واحدة تانية، وأنا خارج قابلت زبون كنت أول مرة أشوفه، ولما رجعت عشان أديله علبة السجاير لقيتهم بيتخانقوا، وفيه حوار كبير بينهم.

سأله «منير»:

ـ شكله إيه الراجل دا؟

ـ عيل طري كدا، عينيه ملونة وفيه علامة بني تحت عينه اليمين.

تفحص «منير» أرجاء الكافيتريا، ثم عاود الحديث مرة أخرى:

ـ ينفع أشوفه على الكاميرات دي يا «بوجي» ضروري؟

ـ دلوقتي صعب، تعالى بالليل وأنا أعملك اللي انت عاوزه من عيني.

انتقل منير حاملًا قهوته، ذهب إلى الطاولة التي أشار إليها عامل البار، جلس على المقعد نفسه الذي استخدمه «سيد الونش» قبل وفاته، نظر إلى الكاميرات، ثم إلى ساعته، فهو على موعد مع أهل «أنس».

****

نظر «فارس» إلى «خطّاب» بغضب، من إيحاءات التشكيك التي نضحت بها ملامحه؛ لكونه الشخص الوحيد في الغرفة الذي تُركت يداه حرة بلا قيود، وقال له:

ـ على فكرة، ممكن تسألهم ليه أنا الوحيد اللي إيدي مش مربوطة، بدل دور المفتش كرومبو اللي انت عايش فيه دا.. والله الموضوع بسيط.

حدجته الملثمة بنظرة ساخرة، وقالت باستهزاء:

ـ إنت بتقول والله زينا؟! عيب على إلحادك يا دكتور، إنت جاي تؤمن هنا ولّا إيه؟!

رمقه «منير» بعلامة استفهام طلّت من عينيه، وأطال النظر، صاح فيه «فارس»:

ـ خليك في حالك.

هتفت الملثمة:

ـ معانا يا جماعة دكتور «فارس»، صاحب أكبر جروب للملحدين في مصر والوطن العربي، مش تعرّفهم بنفسك؟!

ثم اتكأت على حروفها باستهزاء أكبر:

ـ قلّهم بقى إن الطبيعة هي اللي جابتكم هنا صدفة، وهي اللي كتّفتكم، والطبيعة برضه هي اللي هتطلّعكم من هنا!

رفع «فارس» رأسه تجاهها، وسأل بتوتر:

ـ إنتم جايبيني هنا عشان تعلموني أصول الدين؟!

اقتربت منه بضع خطوات سارتها ببطء، ثم أردفت:

ـ نعلمك؟! هنا؟! إحنا هنبعتك هنااااك وانت هتتعلم لوحدك.

ثم أدارت عينيها في وجوه الجميع بعد تلك الكلمات، وتابعت:

ـ كل واحد فيكم يفتش في ماضيه الوسخ كويس، ساعتها هيعرف هو هنا ليه.

ثم انقطع التيار، وانصرفت الملثمة، تاركةً كل مَن بالغرفة في ظلام حالك.. وفي عتمة المكان المُقبِض، سمع «فارس» صوت أمه وهي تناديه من قاع مظلم داخل ذاكرته:

ـ إنت قُلت دعاء ركوب الدابة يا «فارس»؟! قُلت دعاء ركوب الدابة يا «فارس»؟!

حينها، كان يبلغ من العمر خمسة عشر عامًا، صبيًّا يشعر بالضجر بالمقعد الخلفي في سيارة والده، مغادرين محافظة قنا، مسقط رأس أبيه، بعد زيارة اعتيادية لأهله هناك، في طريق العودة إلى القاهرة، كان «فارس» مختلفًا عن أقرانه، متقد الذكاء حدَّ العبقرية، هادئًا لدرجة التوحد، عنيدًا بما يكفي لقتله.

انشغل في مكانه بحل وترتيب مكعب «روبيك»، غير

عابئ بالطريق، ولا بسؤال أمه في مقعدها الأمامي المجاور لأبيه الذي نظر إليه عبر مِرْآة السيارة قائلًا:

ـ «فارس».. إنت مش سامع ماما ولّا إيه؟!

أجابه باقتضاب وهو مستمر في ترتيب المكعب:

ـ قُلته قبل كدا ألف مرة.

حاول الأب التحكم في أعصابه وهو يسأله:

ـ هو إيه اللي قُلته قبل كدا؟!

أجاب الصبي بملامح ملولة دون أن يرفع عينيه عن المكعب:

ـ دعاء الدابة.

ـ متهيألي لما أبوك يكون بيكلمك، من الأدب تسيب اللي في إيدك وتركز معاه، مش كدا ولّا إيه؟!

وضع «فارس» المكعب إلى جانبه، وقال في سخط:

ـ هو إحنا راكبين دابة؟!

التفتت إليه أمه، وقالت بغضب:

ـ أيوه، دي تُعتبر دابة.. أي حاجة بنركبها وإحنا مسافرين تُعتبر دابة يا لمض.

ـ مش فاهم إيه الفايدة.

قالها ببرود، فاتسعت عيناها وصاحت:

ـ عشان ربنا يحفظنا وإحنا على سفر، مش ملاحظ إنك زودتها؟!

اعتصر والده عجلة القيادة، وهو يأخذ شهيقًا عميقًا حتى لا ينفجر في ولده المستفز، نادمًا على كل دقيقة غفل فيها عن تربيته الدينية حين شغله سفره وعمله بالخارج، حتى صار الطفل صبيًّا على موجة مختلفة من صورة أبيه المتدين، بينما عاد «فارس» إلى التقاط مكعب «روبيك»، وأخذ يديره يمنة ويسرة، قائلًا بلهجة مَن يُنهي الحديث:

ـ إحنا ياما سافرنا وماقُلتش الدعاء، ومع ذلك كنا بنوصل.

التفت إليه والده باسطًا ذراعه اليمنى لأخذ المكعب من بين يديه، وصاح:

ـ هات البتاع اللي في إيدك دا واسمع الكلام وانت ساكت، ولما نوصل حسابك معايا.

قبض الصبي بيديه على المكعب بقوة ليمنع والده من أخذه، وحين رفع رأسه المسدل على صدره اكتشف أن كلماته أغضبت والده إلى حد الانشغال عن الطريق، في لحظة انحراف السيارة عن مسارها في مواجهة شاحنة كبيرة قادمة في الاتجاه المعاكس!

تباطأ الزمن لثوانٍ قبل الكارثة، حتى أصبح امتداد الثانية لا نهائيًّا، سكن كل شيء متحرك أمام عينيه، عدا سرعة استجابة عقله لمعالجة الموقف. أدرك أنه لن تفي أي كلمة

لإنقاذ الموقف، فما كان منه إلا أن ترك المكعب لوالده، ثم اندفع بجسده للجزء الأمامي من السيارة في محاولة للتحكم بالمقود لتفادي الصدام، حُشر جسده الهزيل بين المقعدين، ونجح في التحكم بالعربة، لكنها انحرفت عن الطريق بسرعة، في الوقت الذي ضغط فيه والده على مكبح الفرامل بشكل لا إرادي من فزع الموقف، مما أدّى إلى انقلابها.

تبدَّل حال الزمن، فأصبح أسرع من الصوت، اختلطت الألوان كتنُّورة بلغت سرعة دورانها أقصى مدى بين راحتي صاحبها، خرج كل شَيْءٍ عن السيطرة، وانهال على مسامعه صوت الصرخات الممتزج بالحطام.

لا يذكر «فارس» عدد المرات التي انقلبت فيها السيارة، ولا كيف لفظته في السماء بعيدًا عنها، كل ما يذكره جيدًا، قبل سقوطه في جرف الرمال، أن السماء كانت خالية من الطيور إلا من طير واحد يحلق بجواره، طائر زاهي الألوان بلا أجنحة.. مكعب الموت الذي لازمه وهو يسقط في قلب الصحراء، وبعد دحرجات عدة انطوت فيها السماء والأرض، استقر بصره صوب سيارة والده التي لم تقتنع بالجاذبية بَعدُ، ثم سقط أمام عينيه مكعبه ليَحول بينه وبين رؤيتها، ليغمض عينيه فاقدًا الوعي.

شاخ ذلك الصبي الذي كان بداخله تَأفُّف من شعائر الدين التي لم يستطِع عقله شراءها، سقطت القداسة

والخوف من تساؤلاته اللانهائية، التي طالما جرى كتمها وكتمانها، صار يجادل الأصدقاء والمدرسين والمشايخ ومَن تبقى مِن الأهل بشكوك أكبر، ومع تلعثم الألسن في النقاش، وتخبط أصحاب الحجج في إقناعه، وجهل البعض بما وراء النص والحكمة الإلهية فيما جرى إنزاله وتبليغه، زادت جرأة الصبي الذي أصبح شابًّا شغوفًا بالعلم، وانجرف خلف عالم المادة يبحث عن تفسير لمظاهر الكون، واعتبر العلم والدين خصمين لا يلتقيان، فصار لا يضاهيه أحد في درجاته العلمية ونبوغه، وتحوَّلت شكوكه إلى يقين، ليُمسي «فارس» عبقريًّا في العلم، منكرًا للأديان، غير عابئ بزيارة قبر والديه اللذين ذهبا إلى العدم دون أن يُغْنِي عنهما دعاء الركوب!

****

الفصل الخامس

اكتظ بهو استقبال مشفى الحياة، واختلط ضجيج أصوات ذوي المرضى بصخب العاملين وصفير عجلات الأسِرَّة المتحركة، كان له سقف مرتفع أسهم في دعم الضوضاء، ورغم ارتفاع درجة الحرارة خارج المشفى، فإنه كان قطعة من القطب الشمالي.

في غمار انشغال مشرف قسم الاستقبال بالرد على استفسارات المرضى وذويهم وأسئلتهم، بَرَق بَصَرُهُ عندما رأى أحدهم يرتدي تلك الساعة الفارهة التي طالما حلم بها، أمعن النظر إليه جيدًا فوجده ذا مظهر أنيق جذاب، يرتدي بدلة ثمنها يعادل ثلاثة أشهر من راتبه، لاحظ عليه أمارات اللامبالاة، يستند بذراعيه إلى السطح الرخامي لمنصة الاستقبال، وفي عينيه نظرة توحي بأنه ذو منصب وشأن، غاب المشرف عنه لحظات للرد على أحد السائلين، ثم ارتدَّ ببصره مرة أخرى ليجده ما زال محافظًا على سكونه، توجه إليه وسأل:

ـ اؤمرني يا فندم؟

تَطَلَّعَ في وجهه مليًّا، ثم رد ردًّا مباغتًا:

ـ إنت اسمك إيه؟

فأجاب:

ـ «هيثم».. مشرف الاستقبال يا فندم، تحب أساعدك

ازاي؟!

ـ «جمال بيه منتصر» موجود؟!

ـ فيه معاد سابق يا فندم؟!

استقبل السؤال باعتدال ينظر ما بين عينيه في وجوم، ثم وضع يده اليمنى أسفل بدلته، فتوقع المشرف أنه بصدد إخراج كارت شخصي له، لكن خاب ظنه عندما فاجأه بإخراج سلاح ناري، ثم وضعه أمامه على المنصة، ثم أراح كفيه عليه، وبدأ الهدوء يعم محيطه تدريجيًّا، عندما لاحظه الجميع.

ـ قُل له «محمد بيه خطَّاب».

ـ حاضر يا فندم.

رفع سماعة الهاتف ليبلغ المدير بتلك الزيارة، وهو يحاول الهروب من نظراته، أطال المشرف الاستماع لمدير المشفى عبر الهاتف دون التفوُّه بكلمة، مما أثار غضب «خطَّاب»، فأسهب النظر إليه يستنبط رد فعل مدير المشفى من إيماءاته، يعلم أن زيارته المفاجئة كُحصِّل كهرباء في شهر يوليو، أشار إليه بثلاثية الوسطى والبنصر والخنصر ليمنحه الهاتف، فأومأ المشرف برأسه بحركة تعني: لا أستطيع، فما كان منه إلا أن انتزع السماعة من بين يديه عنوةً، ثم لكزه بها في صدره، قائلًا:

ـ شكلك مش فاهم.

ثم صرخ عبر الهاتف قائلًا:

ـ إيه يا «جمال» بيه؟ هو أنا محتاج إذن عشان أقابلك؟

ثم ألقى السمَّاعة بين أحضان المشرف الذي أربكه سوء المعاملة أمام موظفين كان أمامهم دومًا بمنزلة رئيس وزراء المشفى. بيدٍ مرتعشة وضع السمَّاعة على أذنه، ثم طأطأ برأسه قائلًا بانكسار:

ـ حاضر يا فندم.

ـ اتفضل يا «محمد» بيه، «جمال» بيه في انتظارك.

أخذ سلاحه الذي قام بدوره على أكمل وجه، وبخطوات جنائزية قاده المشرف تجاه المصعد، انفتح بابه فدلفا، وقف «خطَّاب» أمام المرآة معطيًا ظهره للمشرف، بينما وقف الآخر يراقب طيفه في انعكاسه على الباب المعدني، انحنى «خطَّاب» برأسه يتفحص حذاءه؛ ليتأكد من أنه ما زال محافظًا على بريقه، فسمع المشرف يقول:

ـ ماكانش ليه لزوم طريقة المعاملة دي قُدام الناس يا فندم!

رفع «خطَّاب» رأسه ببطء للمرآة، وَتفرَّس في ملامح وَجهِه، ثُمَّ عَطفه سريعًا إلى اليمين لِيتفَحَّص جانبه الأيْسر، ثُمَّ إلى اليسَار لِيرَى جانبه الأيْمن، ثم التقط بين إصبعيه رمشًا هاربًا أسفل عينه اليمنى، ظل يتأمله بين إصبعيه وهو يقول:

ـ ينفع ملك الموت يستأذن وهو جاي يقبض روح حد؟!

قالها ثم استدار في مواجهة المشرف الذي انهالت عليه الكلمات كالصاعقة، سمع كثيرًا عن جنون العظمة وطغاة السلطة، لكن لم يصادفهما يومًا، فها هو يتجرعهما معًا، علا صوت جرس التنبيه لوصول المصعد، انفتح الباب.

ـ المكتب تاني باب على يمين الطرقة.

قالها المشرف مجاهدًا نفسه في إخفاء ملامح غضبه، خرج «خطَّاب» ثم استدار واقفًا أمامه في نظرات متبادَلة بينهما، زحفت بوابات المصعد تجاه الانغلاق كانسدال ستائر مسرحية هزلية، أعاق الباب شيء ما، انزعج المشرف حين لاحظ أن الذي أعاق غلقه هو إحدى قدمَيْ «خطَّاب» عمدًا، ثم فُتح الباب من تلقاء نفسه.

ـ كان لازم تديني السماعة أول ما شاورت لك.

قالها «خطَّاب» بثقل دم يزن أطنانًا، ثم انصرف.

وقف «جمال منتصر» أمام باب مكتبه لاستقباله في حيرة من أمر زيارته المفاجئة، فلا يأتي الخير من أمثاله، فمن كان الغراب له دليلًا مرّ به على جيف الكلاب، ردَّدها في سره، ثم استقبله عند ظهوره بحرارة وترحيب زائفين، وربت على كتفه بابتسامة مُحْتَال، ثم اصطحبه داخل مكتبه يثرثر بعبارات احتفاء مستهلكة.

لـ«جمال منتصر» ألف وَجْه، يَتَرَنَّح بَيْن أصحَاب النُّفوذ والسُّلْطة كالخُراف الحائرة بَيْن القطْعان، ماسحًا جوخ هذَا، ومتمَلِّقًا ذاك، وعلى الرغم من أن المنافقين نَوْعان: نوع يُنَافِق كَيْ يعيش، وآخر يعيش كَيْ يُنَافِق، فإنَّ «جمال منتصر» تَميَّز بِطفْرة جِينيَّة جَدِيدَة جمَعت بَيْن النَّوْعيْن.

جلس «خطَّاب» داخل المكتب، وألقى نظرة بانورامية على الجدران التي تكسوها لوحات فنية وصور خاصة به تجمعه مع مشاهير وشخصيات مرموقة، حتى استقرت عيناه عليه يجلس أمامه على مكتبه

ظهرت من خلفه نافذة كبيرة مطلة على الشارع العمومي، تموَّجت عليها ستارة معدنية حجبت أشعة الشمس، وعلى الرغم من صغر المكتب، فإنه منمق وثري بديكورات حديثة باهظة الثمن، بدأ «منتصر» الحديث:

ـ دا إيه النور دا؟ «خطَّاب» باشا، شرفتني!

ـ دا نورك «جمال» بيه، واعذرني على مجيئي بدون معاد.

ـ دا مكتبك، تشرَّف في أي وقت.. قهوتك إيه؟

ـ مالوش لزوم، أنا هامشي على طول.

ـ مايصحش، هو احنا بنشوفك كام مرة؟

ـ خلاص، قهوة سادة مغلية.

رفع سماعة الهاتف وأمرهم بالقهوة.

ـ خير «خطَّاب» بيه؟ فيه حاجة ممكن أقدمها لجنابك؟

ـ خير إن شاء الله، أنا جايلك بصفة ودية، مش بشكل رسمي، تقدر تقول دردشة أصحاب.

ـ تحت أمرك، دي حاجة تشرفني.

وضع «خطَّاب» سَاقًا عَلَى سَاقٍ، وأخذ منديلًا من على سطح المكتب مسح به حذاءه وهو يقول:

ـ «جمال» بيه، تعرف حد اسمه «سيد الونش»؟

وكأنما تلقَّى الآخر ضربةً على يافوخه بمطرقة «ثور»، اختل اتزانه واستقبل السؤال بملامح زائفة توحي بمحاولة التركيز، هذه هي تقاسيم الوجه التي تُستخدم في المراوغة وكسب بعض الوقت، ضاقت عينه اليمنى وشرد في فراغ المكتب، ثم ارتدَّ قائلًا:

ـ لا معاليك ماعرفش حد بالاسم دا.

«يمكنك الكذب بسهولة، لكن ليس في حضرة الشيطان».. وسوس بها «خطَّاب» لنفسه، ثم ابتسم له في مكر دون ظهور أسنانه، وأدار عينيه تجاه نموذج تشريحي صغير لجسم بشري صُمِّم للأطباء كان يحتفظ به على مكتبه، أمسكه بيده ثم أخذ يتحسس الشرايين والأوردة البارزة بأنامله قائلًا:

ـ سبحان الله! الإنسان منتا يبان من برة حاجة جميلة.. لكن في الحقيقة من جوة مليان تفاصيل معقدة ممكن نتوه

فيها، تفاصيل كل ما تقرب منها تكتشف قد إيه الإنسان ضعيف.. يبان للناس إنه صلب ومتماسك، خصوصًا لو كان معاه المال والجاه، لكن لو مدّيت إيدك جواه.. ودخلت في خباياه.. هتلاقي أسرار ونقط ضعف تخليه في لحظة يبقى رخو.. هش.. وسهل جدًّا يدوب في إيدك.

وصلت إصبعه إلى قلب المجسم، فضغط عليه بنظرة قاسية، ثم ضرب بالمُجسم على سطح المكتب بطرقة بدت عنيفة، وتطلع إلى وجهه:

ـ أنا سبق وقلت لمعاليك إني جاي بصفة ودية مش رسمية يا «جمال» بيه، وإن كنت باسألك دلوقتي بشكل ودي دا عشان العلاقة اللي بينّا، وأظن كدا أفضل لك، إنت برضه راجل ليك مكانتك واسمك، ولازم تحافظ عليهم قبل الدنيا ما تدخل في «سين» و«جيم» والموضوع يتحوّل لتحقيق رسمي.

بحمرة وجه ملحوظة وتوتر، تهته «جمال»:

ـ «سين» و«جيم».. وتحقيق! ليه دا كله؟! مش فاهم!

ـ لما يكون البلاغ اشتباه في جريمة قتل يبقى الموضوع مش صغير، ولا إيه يا «جمال» بيه؟

خرجت منه كرصاصة اخترقت قلبه، ثم ارتعشت الإضاءة في مكتبه، ذلك الوميض الذي يسبق الظلام، رفعا رؤوسهما، وتعلقت أعينهما بمصدر الضوء المرتعش حتى انقطع تمامًا للحظة وحال الظلام بينهما، ثم عاد

الضوء إلى الغرفة مرة أخرى، عاد أضعف من ذي قبل، نظر «خطَّاب» إلى «جمال منتصر»، فوجده جالسًا أمامه، لكنه مُكبَّل اليدين مثله تفصل بينهما تلك الطاولة البيضاء، تحاصرهما الجدران السوداء في الغرفة، لقد بدأوا بالفعل بالبحث في ماضيهم، دخلت الملثمة الغرفة تتجه ناحية «جمال منتصر»، نظر إليها بترقُّب وهي تُحرر يديه من القيد، والجمع حوله يتابع في وجل، أمتعتها نظرات الترقب، فأبطأت حركاتها متعمدةً، ثم أخذت تحلُّ القيود واحدًا تلو الآخر، حتى وصلت إلى «صاحب القلادة» الذي ساق لها نظراتٍ تحمل علامات استفهام مبهمة حين انشغلت بفكِّ قيوده، استندت إلى الحائط تراقبهم وهم يَفركون أصابعهم من أثر القيود، تحررت أيديهم جميعًا، لكنها ما زالت رخوة ضعيفة بلا أعصاب. وبينما هم كذلك، استخرجت من بين أحضان الحقيبة الملقاة على المنضدة شيئًا أبيض غير واضح المعالم حتى بدأت بتوزيعه أمامهم جميعًا ما عدا «فارس»، اعتلت وجوههم دهشة حينما وجدوها أطباقًا بلاستيكية بيضاء، يحملقون إليها ولا يفقهون مغزاها، يرصدون جميعًا «فارس» الذي لم ينَل نصيبه من القسمة، فللمرة الثانية مُيِّز عن باقي القطيع، بوجه مُرتاب تجاهل «فارس» نظراتهم مُشْرَئِبًّا ببصره إليها، يتوجس خيفةً مما يخططون له، ثم واصل متابعة يدها التي غاصت مرة أخرى داخل الحقيبة، وأخرجت شيئًا أكبر من كفّ يدها الصغيرة بألوان زاهية، ثم ذهبت إليه ووضعته أمامه دون أن ترفع يدها عنه، مال «فارس»

برأسه ليحاول تأكيد ظنه، رفعت يدها ليكتشف أنه مكعب «روبيك».

تأجَّج «ذو القلادة» كالنيران الحامية، وخرج عن صمته بصرخات مدوية وجَّهها إلى «منير»:

ـ إنت هتفضل ساكت كدا كتير؟! ما تنطق يا «منير».

لم يبالِ بما طفح منه واستمر في تدليك أصابع يده المرتخية، لم يرفع عينيه عن المنضدة ولم يرمش وهو محاط بنظر الجميع، صَبَّ صمته على النار نفطًا، فعاود «ذو القلادة» الصراخ فيه ثانيةً:

ـ إنت يا بني آدم! إحنا ما لنا باللي يحصل هنا؟!

منحه «خطَّاب» ابتسامة محقق قائلًا:

ـ إنت مش قلت إنك ماتعرفش حد غيري؟

بعين مفعمة بالجرأة حَدَّقَ به «منير» قائلًا:

ـ أعرفكم كلكم.

صاح «جمال منتصر» بصوت شقّ حَنجرته المُغلفة بكُل الدهون:

ـ إنت تعرفني منين يا ابني انت؟!

كان مكعب «روبيك» يدور حول نفسه على المنضدة بفعل إصبع «فارس»، ثم توقف لثوانٍ يقول:

ـ يا «جمال» بيه، إنت أشهر من النار على العَلَم، عيب

تسأل السؤال دا!

عاود «ذو القلادة» قائلًا:

ـ ما تنطق يا «منير» واخلص، ولّا عاجبك اللي احنا فيه دا؟!

دارت «الملثمة» حولهم ببطء كالمراقب في لجنة الامتحان، حتى أمسكت برسغ «فارس» لتمنعه من تقليب المكعب بإصبعه، كادت أظافرها تخترق عروقه الزرقاء، ثم تركته حين باغت «خطّاب» ذا القلادة:

ـ طب ما تتكلم انت!

حينها انحصرت أعينهم جميعًا تجاهه، فبحركة غير متوقعة استند بكفّيه إلى أطراف الطاولة، وزج بنفسه للخلف بقوة، جزعت آذانهم من دويّ صراخ كرسيه محتكًا بأرض الغرفة، استطاع الابتعاد بمقعده عن الطاولة مسافة ذراع، ثم فرد قامته بينما ينظر إلى «فارس» و«منير»، وأمسك بأطراف قميصه مشمّرًا إياه لأعلى، سحبه ببطء من تحت قيود خصره ليكشف عن بطنه الممشوق بعضلات منمقة. ثم أشار بإصبعه إلى آثار جرح بطول سبعة سنتيمترات وأردف:

ـ بتشبّه على الجرح دا يا دكتور «فارس»؟!

نظر «فارس» إلى الجرح وتذكّر لمعة مشرطه المصنوع من التيتانيوم حين داعب مقلتيه قبل البدء بغرسه في أولى

طبقات جلده السميك، وكذلك الطبقات الست الأخرى التي شرع أيضًا في شجّها بلا رحمة، مرورًا بمرحلة توسيع الجرح بيديه، صنع في جسده فجوة تتسع لدخول كفيه متلاصقتين داخل أحشائه، بئر غائرة حوافها من لحم بشري، ومن ثمَّ قطع كل الأوردة والشرايين المتصلة بكليته وكواها بالمشرط الكهربائي بعد تسخينه.

رفع «فارس» عينيه عن الجرح قائلًا:

ـ هو حد كان ضربك على إيدك؟

همس «خطَّاب» لنفسه بصوت خَفيض:

ـ جرَّاح؟!

ترك «ذو القلادة» قميصه ليسقط وشرد قائلًا:

ـ أنا اسمي «كريم»، وحقيقي عمري ما شُفت «سيد الونش» ولا أعرف حتى شكله، كل الحكاية الناس دلوني عليه عشان كان عندي مشكلة وكان حلها عنده.

استند «خطَّاب» بكوعيه إلى الطاولة مشبكًا كفيه، صانعًا منهما مسندًا لذقنه يترقب كل كلمة يتفوه بها «كريم» الذي صمت ونظر إلى «منير» باحتقار وشرد.

****

بين ضفتي الشارع العريض (شارع محمد علي)، مضى «منير» في طريقه إلى منزل «سيد الونش»، خطى الفضول نفسها التي ساقته لأهل «أنس» من قبلُ هي ذاتها التي تزجّ به الآن في غياهب المجهول.

دخل إحدى الحواري المتفرعة من الشارع، كانت الأرضية غير ممهدة. تعثرت قدماه أكثر من مرة في الحجارة والنتوءات، فرأى البيوت المتلاصقة العتيقة، والدكاكين الصغيرة التي تمتد على الجانبين تفوح منها رائحة الفقر..

وهل للفقر رائحة؟!

قناعَتُه أنَّ المُعْدمين مِن سُكَّان العشوائيَّات لَهُم رَائِحة حَقيقِية تُمَثِّل طَبقَة مِن البشر، والغريب أنها تزكم أنوف الجميع عدا الفقراء أنفسهم! مُسْتوْطنين حَيْث لَا تُشْرِق الشَّمْس ولَا تَغرُب، مَنازِلهم عَطنَة غَيْر مُتَجددَة الْهَواء، مُحاطين بخَلِيط مِن رَائِحة الرُّطوبة مع المخلَّفات المنثورة فِي الزَّوايَا، مُحاصرين بِالْمساحات الضَّيِّقة مِن الغُرف المكْتظَّة بِأنْفَاس مُختنقَة، الجدْران والْأَسْقف المرْتَشحة بِمياه الأَمْطار، روث الدَّواب الذين يقاسمونهم العيش، كُلُّ ذَلِك صَبغ أَرْواحهم قَبْل أَجْسادهم بِرائِحة الفقْر، غَيْر أنَّه لَم يَنسَ يوْمًا تِلْك الرَّائحة الِتي لَازمَتْه طِيلة دِراسَته الابْتدائيَّة، حِين كَانَت تَفُوح مِن حَقائِب زُمَلائه رَائِحةُ حُفِرَت فِي ذاكِرَته وتركت بصمة فِي مَكْتَبته العطْريَّة، الوجبات الرَّخيصة المحْشورة بَيْن الكُتب، شَطائِر من بقايا الأكل المنزلي للتوفير، مَلفُوفة بِورَق جَرائِد سال حِبْره على

الأكْل، مِن هُنَا بَدأت قناعَته بِأنَّ لِلفقْر رَائِحة، لا يميزها إلا من ابتعد عنها.

هامَ على وجهه في الحارة ينظر باستطلاع دون بوصلة، ظهرت عليه الحيرة، صوَّب أهل المنطقة عليه الأنظار، يقولون إن مَن تبحث عنه هو أيضًا يبحث عنك، ولا سيَّما حين يكون الفضول عاملًا مشتركًا.

ـ بتدوّر على حاجة يا سمارة؟!

قالها شاب يستند إلى جدار منزل آيل للسقوط لولا بعض العروق الخشبية التي حالت دون ذلك، نقر الشاب على الشباك عن يساره، فانغلق في عجالة، واستمر في تدخين سيجارته بشراهة، استقرأ «منير» كعادته أنه أحد «ديلرز» المنطقة فأجابه:

ـ بيت «سيد الونش».

اعتدل الشاب وقذف سيجارته بعيدًا بطرف إصبعه الوسطى، ثم قال والدخان يغادر شفتيه:

ـ اؤمر.

ـ عايز أوصل لبيته.

ـ هو انت ماتعرفش إنه مات ولا إيه؟!

ـ لأ عارف.. بس كان في رقبتي دين قديم جاي أديه لأخته.

نظر الشاب إليه في صمت، ثم نقر على الشباك نقرتين متتاليتين انفتح على أثرهما، ثم مدّ يده بالداخل قائلًا:

ـ فراولة.

منحه مَن بالداخل قرص «ترامادول»، ألقاه بين فكيه وابتلعه دون قطرة ماء، ثم أردف:

ـ شكلك مش من هنا، إنت منين يا سمارة؟!

قالها بلين ابْتَغَى به مصلحة:

ـ أنا من بلد الرجالة اللي بتقدَّر تعب الناس الحلوة اللي زيك.

ثم أبرز له ورقة نقدية فئة المائتي جنيه، فقبض عليها بسرعة البرق، ووضعها في جيبه دون تفكير، وأمسكه من ذراعه، وبدأ يتحرك به تجاه مخرج الشارع قائلًا:

ـ بص يا سيدي.. كل اللي أعرفه إن «سيد الونش» كان عنده حوارات ومشاكل كتير، فقال لأخته تسيب البيت وتروح بلدهم، تحس إنه كان عارف إنه هيموت.

ـ ماتعرفش كان عنده مشاكل مع مين؟

ـ لا يا صاحبي.

ـ طب تعرف بلدهم إيه؟

ـ من الفيوم.. لكن فين بالظبط مش عارف.

خرج «منير» من الحارة خالي الوفاض.. مجرد معلومات

ضئيلة، ترك رقمه للشاب للتواصل معه في حال ظهور أخت «سيد الونش» أو أي معلومات جديدة.

****

ركض «موزة» حتى كادت أنفاسه تنقطع، تخبَّط مندفعًا بين جموع المارة دون الالتفات إليهم، دموعه المنهمرة تطايرت بفعل سرعته، قدماه الحافيتان تصفعان الأرض بقوة، فكم تمنَّى لو بدَّل بذراعيه جناحين، يهرول بين السيارات المسرعة حتى أوشكت أن تدهسه إحداها، وصل إلى مقهى «أم كلثوم»، تفحَّص كل الحاضرين بجنون يبحث عن «منير» محتضنًا بيديه النحيلتين صندله المتهالك الذي كان يعوق ركضه، انهار باكيًا بين ذراعيه حين وجده.

ـ فيه إيه يا «موزة»؟

سحبه من يديه بقوة دون التفوه بكلمة، فلا طاقة له للحديث، خرج «منير» مسرعًا معه يحاول تهدئته ومعرفة ماذا حدث، استجمع «موزة» جزءًا من عافيته في ثلاث كلمات:

ـ «فهد» خبطته عربية!

ركضا معًا وسط الزحام حتى اقتربا من موقع الحادث، وعلى بُعد بضعة أمتار، رأى «منير» كومة من البشر يلتفون حول المصاب، من بين أرجلهم المتشابكة رأى يديه الصغيرتين منطرحتين أرضًا وامرأة جالسة بجواره تحاول إسعافه وتَضميد جراحه، والبعض يستخدمون هواتفهم لتوثيق الحادث بدم بارد، وصلت الإسعاف مع وصول «منير»، حمله المسعفان داخل السيارة باحتراف؛ لتفادي

أي مضاعفات، ونُقِل إلى المشفى.

وقف «منير» على باب الطوارئ في متابعة المسعفين والأطباء في أثناء محاولتهم إفاقته وتشخيص الإصابات، وبجواره «موزة» الذي غمر ملامحه الرعب خوفًا على صديقه، في خضمّ هذا، استدعاه أحد مسؤولي الاستقبال لأخذ بيانات أحد ذوي المصاب ودفع رسوم مبدئية تحت الحساب.

لم تشغله الإجراءات عن مراقبة «موزة» الذي انفطر قلبه حزنًا على حال خليله، ما بين دقيقة وأخرى كان ينظر إليه مشفقًا على حاله، رآه يجلس في ركن مكنون بوضعية أشبه بوضع الجنين، محتضنًا صندله، تذرف عيناه الدموع بلا انقطاع، ينظر إلى غرفة الطوارئ مقهورًا.

أحد موظفي التمريض بالمشفى استوقفه بكاؤه، كان ذا شعر أسود كثيف يرفرف بنعومة تفتقدها كثير من النساء، يميل بسماره الداكن إلى بشرة الهنود، له فم كبير ذو شفتين مقززتين أهلكهما التدخين، وأسنان صفراء فوقها شارب مغوار، له طول مميز لافت للأنظار، انحنى له ثم وضع يده على كتفه محادثًا إياه، ثم تركه للحظات، عاد بعدها معه بعض العصائر وزجاجة مياه، جلس القرفصاء أمامه، وطال الحديث بينهما في متابعة «منير» عن بُعد، ثم انصرف.

ذهب «منير» إلى «موزة» بعدما أنهى الإجراءات

المطلوبة:

ـ اللي يشرب لوحده يزور.

رفع «موزة» رأسه لـ«منير» باسطًا يده بكل براءة بإحدى معلبات العصائر. ابتسم «منير»:

ـ لا يا حبيبي، أنا باهزَّر معاك، اشرب انت بالهنا والشفا.

أتاه أحد أطباء الطوارئ:

ـ الولد فاق الحمد لله.. عنده كسر مضاعف في رجله اليمين وبعض الكدمات، لكن أحب أطمنك، انكتب له عمر جديد.

ازدرد «موزة» لعابه وتنفس الصعداء بعدما اطمأن على رفيق رحلة البؤس، ثم خرج من غرفة الطوارئ ذلك الممرض الذي كان يجالسه، فأشار بيده إليه بأن صديقه على ما يرام.

شعر «منير» بأنها ليست المرة الأولى التي يشاهد فيها تلك الملامح الحادة، لكنه لا يستطيع تذكُّر متى وأين رآه، فسأل «موزة»:

ـ إنت تعرف الراجل دا؟

ـ أيوه.

ـ تعرفه منين؟

ـ دا عم «مناع»، صاحب «سيد الونش»، كان يقابله في القهوة والمكتب.

جَحَظت عيناه ونَتأت حَدَقَاتُهما، وتشبثت بخطوات ذلك المرض في كل شبر داخل المشفى، يخاطر نفسه بواحد من اقتباسات كتبه:

«لَا وُجُودَ لِلحَظِ ولَا لِلصُّدف فِي الحيَاة، إِنمَا لِلْقدر رَسائِل مُشَفرَة، تَفَك طلاسمهَا دائمًا بعْد نَفاذِه ولْيس قبله».

****

عربة ربع نقل حمراء تسير وسط زحام مروري، تلاصقت فيه السيارات وتناحرت فيما بينها، لا يعلم الجميع سبب الزحام الذي ضرب الشارع رغم سعته. ضجر صاحبها من الاختناق المروري فصاح:

ـ مش جُولت لَك نركب الدايري أبرك يا عم «منير»؟!

نظر إليه ثم ابتسم لتهدئته قائلًا:

ـ خلاص، إحنا وصلنا يا عم «شعبان».

ضرب «شعبان» مقود السيارة بتأفف قائلًا:

ـ ما هو بَرضك آني اللي غلطان إني سمعت الكلام عمنول.. عندينا في بلادنا بيجولك اللي يعمل ضهره جنترة يستحمل الدوس.

ـ هانت يا عم «شعبان» وابتدت تمشي الحمد لله.

بدأت السيارات تكتسب سرعة تدريجية، فتقدمت عربته، فانكشف لهما سبب الزحام.

ـ هو يوم مجندل من أوله.

قالها «شعبان» وهو يبحث عن رخص السيارة أسفل مفرش التابلوه.

ـ فيه إيه يا عم «شعبان»؟

لوَّح «شعبان» بكفه:

ـ زي ما انت شايف إكده، حَكومة مابتوجفش غير

النجل.. يعني هجف هجف.

ـ إنت مش رخصك سليمة؟!

ـ لع... مش هوّ دا الحوار.. سيد بيه ديه... روحه ضيّجة ودايمًا مش طايح خلجاته وأرخم خلج الله..

ثم حرَّك عصا القيادة وزفر مغمغمًا:

ـ وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصرون.

ـ فيه إيه يا عم «شعبان»؟ هو احنا داخلين على كُفار قريش ولا إيه؟!

أمسك بالرُّخص بين يديه، ورسم على وجهة ابتسامة عريضة مفتعلة، تجسدت فيها كل معاني نفاق السلطة، كانت تسبقه سيارة ملاكي لم يستوقفها الكمين، وأشار إلى «شعبان» بالتقدم، فلما اقترب مد يده بالرخص قائلًا:

ـ باشا.. صباحك عنب.

أمسك الضابط الرخص وتفحصها، ثم نظر إلى «شعبان» وسأله:

ـ رايح فين يا عم «شعبان»؟

رد «منير» من داخل السيارة:

ـ استوديو مصر إن شاء الله.

انحنى الضابط مستندًا إلى الشباك يرمق المتحدث،

فلاحظ وجه الشبه بينه وبين المطرب محمد منير، فابتسم قائلًا:

ـ أهلًا يا كينج.

وضع «منير» يسراه على صدره وأخذ يلوّح بالأخرى في الهواء بشكل دائري، وبدأ بالغناء وتقليد محمد منير:

ـ برة الشبابيك غيوم.. برة الشبابيك مطر.

ضحك الضابط، ثم استقام يخاطب الأمناء والعساكر:

ـ معقول الكينج يبقى في وسطينا يا رجالة وماناخدش صورة معاه؟!

نظر «شعبان» تجاه «منير» وهمس في غضب:

ـ يا باااااي.. برة الشبابيك غيوم ونَتَر! إنت ماعَتشوفش إن البعيد ملجح جدته على شباك المخروبة.. تجولش هيدلّي السَبَت.

نظر الضابط إلى شاسيه السيارة، فوجد صندوقًا طويلًا من الكرتون، لمح على أطرافه بقعةً من الدماء، ساقته قدماه تجاهه، ثم أخرج من جيبه ميدالية مفاتيح، وشق اللصق العلوي للصندوق في مراقبة «منير» له من خلال المرآة، وحين همَّ الضابط بفتحه، قام «منير» بالضغط على بوق السيارة، فأصدر ضجيجًا أوقف به حركة الضابط، نظر إليه مقطِّب الحاجبين، فلاحظه يشير إليه بعدم فتح الصندوق، مما زاد فضوله لفعلها.

فتحه ليصطدم بجثة ممددة بداخله وقد نُبشت أحشاؤها، استلَّ سلاحه في لمح البصر، ثم اندفع تجاه باب «شعبان» وفتحه بعنف، ثم قبض على قميصه من خلف رقبته وطرحه أرضًا بقوة وجثا فوقه:

ـ اثبت انت وهو في مكانك.

أصاب الذعر كل مَن لاحظ رد فعل الضابط، ثم طوَّق أفراد الأمن السيارة من كل اتجاه، رفع «منير» يده فوق رأسه يصرخ فيهم:

ـ دا ماكيت.. ماكيت يا جدعان.. خدع سينما أقسم بالله.

انتبه الضابط لصراخه، فنهض مسرعًا تجاه الصندوق حتى يتأكد من صحة كلامه، أخذ يتفحص الجثة جيدًا، ثم تأكد من أنه مجرد ماكيت مصنوع ببراعة، فهمهم الضابط:

ـ يا ولاد اللعيبة.. لبّشتوا ميتين أمي.

أشار إلى القوات بالتراجع، ثم رفع «شعبان» من الأرض بعدما تلطَّخ وجهه بالتراب، وانقطعت أزرار قميصه، وانقطع خَلَفُه، فأردف «شعبان» وهو يهندم حاله:

ـ كفّ الحكومة مايحسبش وماعيزعلش واصل.. والكبير الكبير وسط نَاسه.

أخرج «منير» ورقة أعطاها للضابط، فوجد فيها أمر

إسناد من شركة الإنتاج لصنع ماكيت يحاكي جثة، طوى الورقة ثم أعطاه إياها، ولم يستطِع منع نفْسه من الضحك، ثم سأله:

ـ وانت يا كينج اللي عامل الشغل دا؟!

ـ يا باشا دا فن اسمه «التروكاج»، وأنا من أشطر الناس فيه.

ـ طب خلي «شعبان» يركن على جنب يوسَّع للطريق واستنى عاوزك.

نظر «منير» تجاه «شعبان» يستأذنه:

ـ لا مؤاخذة يا عم «شعبان»، اركن وهافهّمك كل حاجة بعدين.. شكل الظابط عاوز يصور الماكيت على تليفونه.

قبض «شعبان» بكلتا يديه على مقود السيارة، ثم نظر إلى «منير» بطرف عينيه وقد حوَّل التراب وجهه إلى بلياتشو حزين، ثم سحب شخرة عبَّر بها عن كل معاناته.

غادرا الكمين، ووصلا داخل استوديو مصر لتسليم الماكيت لشركة الإنتاج، وفي أثناء انشغال طاقم العمل بفحص الماكيت ووسط نظرات الانبهار بموهبة «منير»، جاءته مكالمة من رقم غريب، فأجاب:

ـ ألو.. مين معايا؟

ـ أنا اللي بتدوَّر عليها.

صمت يفكر في الرد، ثم عاد:

ـ مين معايا؟

ـ اسأل نفسك إنت كنت بتدوّر على مين!

ـ فَكَّر قليلًا ثم أردف:

ـ أُخت «سيد الونش» معايا؟

ـ أيواااا.. أخت «سيد الونش»... وزي ما بتدور عليَّ أنا كمان بادور عليك.

****

أصدر إبريق الشاي صفيرًا يُنذر بغليان الماء، استجاب له «مناع»، فرفعه برفق، وبدأ في ملء الأكواب من ارتفاع أحدث به صوتًا ورغوة فاتحَين للشهية، ومن خلفه «منير» و«كريم» يجلسان على أريكة صغيرة ينتظرانه، يقطن «مناع» في إحدى ضواحي منطقة القلعة في غرفة بالدور الأخير لا تنتمي إلى المبنى، شُيِّدت رغمًا عن سكان العقار، غرفة صغيرة ذات خندق ضيق يستخدمه كمطبخ وأحيانًا للتلصُّص على الجيران ليلًا، أما المرحاض فكان خارج الغرفة على بُعد خطوات في نهاية السطح، أثاث الغرفة سرير مبالغ في طوله، ومقعد خشبي بلا مسند، وأريكة ذات مسندين كالحجارة أو أشد قسوة.

أخذ كل منهم كوب الشاي، ثم جلس «مناع» على المقعد الخشبي يرتشف من الشاي بشفتين غليظتين وصوت مقزِّز، كان التوتر حليف «منير» على عكس «كريم» الذي كان يجلس مستندًا بذراعه اليمنى إلى حافة نافذة تعلو الأريكة، وأطال النَّظَرَ نحو قلعة صلاح الدين التي ظهرت له عن بُعد.. في تلك اللحظات، كانت أعين الآخرين تتبادل حديثًا خفيًّا، ترك «منير» كوب الشاي وهمَّ واقفًا يسأل «مناع» عن مكان المرحاض، فاصطحبه إلى خارج الغرفة بعدما فطن إلى أنها حجّة للانفراد بالحديث معه، وبعدما ابتعدا بضع خطوات، بدأ «مناع» محادثته:

ـ ما لك يا أستاذ «منير»؟!

ـ خايف.. ومش مطمّن.

ـ خايف من إيه؟!

ـ اللي أنا باعمله دا عكس مبادئي وأخلاقي.

ضحك «مناع»، ثم وضع يده على كتفه، وأكمل المسير حتى وصلا إلى سور السطح، ثم أمره بالنظر جيدًا إلى المارة في الشوارع والطرقات، وأردف:

ـ شايف صندوق الزبالة اللي هناك دا؟!

أومأ «منير» برأسه بأنه يراه.

ـ كل يوم على العصر بتيجي ست كبيرة خرسا، بتنكش فيه على بواقي الأكل، بتدور على شنطة معينة، الشنطة دي بترميها كل يوم عربية مرسيدس، الفانوس الواحد فيها تمنه ستين ألف جنيه.

استند «منير» بكفيه إلى السور، وأمعن النظر إلى الصندوق، وشرد هائمًا فيما طرأ على مسمعه، فأشار «مناع»:

ـ شايف حتة الأرض اللي بتتبني هناك دي؟

انتقلت عيناه سريعًا منصتًا له:

ـ الأرض دي بتاعة أيتام، عمّهم ضحك على مراة أخوه واتجوزها بعد وفاته، ومضّاها على تنازُل، وطلّقها ورماها في الشارع هي وأولادها، وبعدين اتجوز بنت من دور عياله.

تحولت شاردة «منير» إلى غرق في المعاني المستترة خلف كلماته، وبدا كالمسحور تحت طائلة أحد كهنة فرعون، قرأ «مناع» ذلك في ملامحه، فلم يتوانَ في ضرب الحديد في عز وهجه:

ـ شايف الست والراجل اللي بيركبوا تاكسي دول.. الست دي رقاصة في كباريه، واللي معاها دا جوزها، رايح يوصلها لنمرتها.

تحوَّلت حيرة «منير» إلى صورة ناطقة للعجز، الشخصية التي ظن أنها سطحية مهمشة، لها مبرراتها، وإن كانت واهية، فتابع «مناع» صبَّ كلماته في أذنيه:

ـ سنة 92 حصل زلزال.. فاكره؟

ـ أيوه فاكره طبعًا.

ـ ساعتها كانت صلاة الفجر بيتفرش لها برة المسجد زي صلاة الجمعة.. الناس خافت ورجعت لربنا.. ادخل دلوقتي شوف المساجد في صلاة الجمعة كام صف.. الناس بتنسى.. الناس عاوزة كل يوم زلزال.. إحنا عايشين في غابة يا كبير، يمكن الغابة ليها قوانين الحيوانات بتحترمها، مفيش حيوان بيقتل ولاده، لكن في الغابة بتاعتنا بتحصل.. وبتحصل كتير.

ألقى الساحر بما في يمينه، فغدا ثعبانًا عظيمًا حقيقيًّا أمام عيني «منير»، قادرًا على التهام كل القيم والمبادئ:

ـ يا أستاذ «منير»، إنت اللي بتختار لا مؤاخذة تعيش في الغابة دي حمار وبتّاكل، ولّا تعيش ملك للغابة وتسيطر، سيبك بقى من مبادئك وأخلاقك.. انساهم، أقولك؟ طلّع لهم تصريح دفن زي ما انا عملت.

انحرف «منير» برأسه تجاه الغرفة ينظر ثواني، ثم أردف:

ـ وذنبه إيه «كريم»؟ أنا كدا باستغل الظروف الصعبة اللي بيمر بيها، باحلّ مشكلتي على حساب مشكلته.

ردَّ «مناع» منفعلًا:

ـ وانت ما لك؟! هو حد ضربه على إيده؟! إنت إيه؟ هتنخّ من أولها؟ وبعدين هي الفلوس اللي هتاخدها دي تُعتبر فلوس؟ بكره نتعود والموضوع يبقى عادي.

أوشك «مناع» على إنهاء كوب الشاي، فرفع إلى جوفه ما تبقى حتى أغرق شاربه، راح يمسحه بلسانه كحيوان بري وهو يقول:

ـ يلّا بينا ندخل علشان الراجل مايقلقش.

أحجم «منير» بيده خطوات تجاه الغرفة، ثم سأله:

ـ الفلوس هاخدها ازاي؟!

ضحك «مناع» وكتم صوته حتى لا يعبر حدود الغرفة، ثم أزاح يده قائلًا:

ـ إيه؟! لحقت تطلع تصريح دفن لمبادئك وأخلاقك؟!

****

خرجت «شمس» من بوابة الفيلا تتجه إلى الحديقة حاملةً طعام «كاسبر»، لم تنسَهُ يومًا منذ غياب «أنس». جلست أمام الكوخ وبين ركبتيها الصحن، ثم هتفت عليه فلم يستجب، كررت الهتاف، لكن لا جدوى، سمعتْ صوتًا مُبْهَمًا داخل الكوخ، سكتت كي تنصت جيدًا، سمعت صوتًا بَاهِتًا يأتي من مسافة بعيدة، مصدره كان ظلمة الكوخ، وكأن بداخله بئرًا غائرةً يأتي الصوت من قاعها، ميَّزت الصوت جيدًا، كان صوت بكاء، اقتربت بأذنيها من باب الكوخ ببطء حتى تتأكد من هواجسها، لم تسمع شيئًا سوى صفير الهواء العابر بين شقوق الخشب، ضرب أذنيها هواءٌ دافئٌ خرج من جوف كائن حي، ابتعدت في رعب تنظر إلى الكوخ، خرج «كاسبر» ينظر إليها بعينين كسولين، لم تنزعج من الهواء الذي خرج من أنف «كاسبر»، لكن ما أرعبها شيء آخر، خال لها أنه كان ينادي بخفوت: «شمس».

حملقت إلى الكلب الذي جثا يأكل من صحن الطعام في هدوء تام، بدا لها الأمر طبيعيًّا في ظل الضغط العصبي والتوتر اللذين تعيش فيهما منذ غياب شقيقها، توغلت أصابعها في فروة رأسه كما كان يفعل «أنس».

نهض الكلب مقتحمًا الكوخ، ثم عاد وبين فكيه كرة صغيرة، هز رأسه ورفرف ذيله، أمسكت الكرة مبتسمةً، ظل يقفز يمينًا ويسارًا من حولها منتظرًا إلقاء الكرة في أي اتجاه، قذفتها صوب سلالم الفيلا، هرول خلفها في شغف

كالأطفال، ثم قبض عليها بفكّه وعاد مسرعًا بين قدميها، كررتها كثيرًا حتى هدأ واستكان.

ألقت الكرة داخل الكوخ وانصرفت.. وعند أعتاب دَرَج السلم، سبقتها الكرة وارتطمت بالدرج، ثم استقرت بين قدميها، فخاطرت نفسها:

ـ أنا رميت الكرة في الكوخ!

التفتت إلى الكلب فوجدته ساكنًا مكانه، لا يستطيع «كاسبر» إلقاء الكرة بتلك القوة، التقطتها ثم فتَّشت بعينيها في كل ركن من الحديقة عساها أن تجد تفسيرًا منطقيًّا، لاحظت أحدًا يستتر وراء أكبر شجرة في الحديقة، ظهر لها جزء من ساقه وكتفه، تصلَّبت مكانها بعدما ساورها الشك في أن يكون «أنس»، صرخت عليه صرخةً أفزعت الطيور على أغصان الشجر فغادرتها، نهض الكلب ينبح مشرئبًّا هو الآخر وكشَّر عن أنيابه، لو كان مَن يختبئ خلف الشجرة «أنس» لركض «كاسبر» تجاهه دون تفكير، هذا ما أبطأ خُطاها الحذرة، اقتربت من الشجرة في رعب، واعتصرت الكرة في كفِّها دون وعي، لم تجد شيئًا ولا حتى أثرًا لقدم، سكت الكلب عن النُّباح ودخل الكوخ في صمت، لقد رأى شيئًا أجبره على المراقبة من الداخل، ظل ينظر في اتجاه شجر اللبلاب، يعوي بصوت خفيض، زحفت «شمس» بخطى أثقلها الخوف تنظر في جُبن حيث استقرت عينا «كاسبر».

الصدمة! يقف «أنس» بوضوح وسط الحديقة متيبسًا، ركضت إليه مسرعةً، وقفت خلفه على بُعد خطوتين، أرادت أن تهتف به لكن لم تستطِع، قوة خفية أجبرتها على الخرس، التفت إليها ببطء شديد، كانت عيناه تفيضان بالدموع، ملامحه غريبة، هو «أنس» لكن بعد مائة عام، حاولت الهروب من أمامه، لكن قدميها كانتا ككتلة من الحديد الخام، رفع يده اليمنى أمامها يقبض بكفِّه على كُلْية بشرية تقطر منها الدماء دون انقطاع، تجمَّد في جسدها كل شيء كان قابلًا للحركة عدا حدقتيها، نظرت إلى ما بين قدميه لترى فروع اللبلاب تزحف كالأفاعي، تتسلق قدميه بأعداد كثيفة مختلفة الأحجام، طوَّقت ساقيه حتى اختفت معالمهما، وصلت عند خصره تتجه إلى أعلى في شموخ، انشقَّ عنهم فيلق أكثر كثافة، زحفوا أسفل إبطه صوب يده القابضة على الكلية، بشكل حلزوني التفوا حول ذراعه يتسابقون فيما بينهم مَن سوف يصل أولًا، اختفى «أنس» وسط كومة ضخمة من اللبلاب، ثم أخذت الأرض في ابتلاعه رويدًا رويدًا حتى تساوت الحديقة من جديد.

الآن يمكنها الصراخ، يمكنها الركض.. تحررت من كل شيء، لكن ألمًا شديدًا يعتصر معدتها، شعور فظيع يدفعها إلى القيء، لم تحتمل المغص، سقطت أرضًا تستند بذراعيها إلى الأرض، هرول إليها «كاسبر»، ووقف أمامها ينبح، تساوت رؤوسهما في تضادّ، كانت تجلس في وضعيته

نفسها، شعرت بفروع اللبلاب تتصارع داخل معدتها، جنين غاضب يضرب بقدميه يستعجل الولادة، الكلب ينبح، شعرت بهم يتصاعدون واحدًا تلو الآخر، اختنق مريئها بهمجيتهم في الخروج، الكلب ينبح، أحماض المعدة تحتل المقدمة وتحرق كل شيء، فتحت فمها استعدادًا للمخاض، الكلب ينبح، زحف عظيم وحجم الفم أصغر من المطلوب، انسدَّ حلقها وامتنع التنفس، الكلب ينبح، تقوَّس ظهرها عكس الجاذبية، فُتحَ الهويس واندفعت عصارة صفراء تبعها شعر أسود كثيف اقترشت به الأرض من تحتها، الكلب ينبح، شلال مجهول المصدر، تمدد في الأرض بعشوائية، العصارة أكسبته لمعة مقززة ودخانًا كثيفًا، كاد يلامس قدم «كاسبر» فأخذ يتراجع ولم يكفَّ عن النباح، خارت قواها وبدأت في الاستسلام للموت، هبط جفناها ولم تستطِع غلق فمها، الكلب ينبح، غادرت إلى ظلام دامس وما زال الكلب ينبح.

صحت من نومها بفم يسيل منه اللعاب، كان كابوسًا ليس إلَّا، لكن نباح الكلب ما زال يدوي في أذنيها، ظلت لحظات على شكٍّ من استيقاظها حتى استبان لها الفارق بين رؤى الأحلام والواقع، غادرت سريرها ومضت نحو نافذتها المطلة على الحديقة، أزاحت جزءًا من الستارة في كسل من بقايا النُّعاس، لفحت الشمس عينيها، فقاومتها بكفِّها، رأت مشهدًا أثار ريبتها، أحد الأشخاص يرتدي بذلة وقائية كاملة ضد عضِّ الكلاب،

ورأت أخاها «عظيمة» قابضًا على حزام جلدي طوَّق به رقبة «كاسبر» يمنعه من الهجوم عليه، ولم يسكت الكلب عن النباح.

****

وقفت سيارة أمام مستشفى الحياة، وانعزل «كريم» داخلها بمشاهدة مقطع فيديو على هاتفه المحمول، كلما انتهى أعاد تشغيله.

في الوقت نفسه، كان يتابعه «منير» الذي يجلس بجانبه، حاول جاهدًا إقناعه بالرجوع عمَّا يخطط له، والبحث عن حلول بديلة، لكنه رفض وأصر على تلك الخطوة، قبض على الهاتف بين يديه، وبدأ في نقاشه لآخر مرة قبل نزوله من السيارة قائلًا:

ـ إنت مش محتاج تعمل كدا يا «كريم». أكيد فيه حل تاني.

احتدَّت ملامحه وعيناه عالقتان بأبواب المشفى:

ـ الحياة اختيارات، ودا قراري.. مش عاوزك تقلق ولا تشيل همي.

ثم ربت على ساق «منير»، وأعطاه الهاتف مغادرًا السيارة متجهًا إلى المشفى، جندي مقاتل يبحث عن شرف الشهادة، استقبله «مناع» على الباب، واصطحبه إلى الداخل، وفي إحدى طرقاته العريضة ظهر لهما ذلك البدين «جمال منتصر»، رمقهما بنظرة خاطفة ولم يُلْقِ لهما اهتمامًا، انحنى «مناع» عندما حاذاه رافعًا ذراعه الطويلة معطيًا له التحية:

ـ معالي الباشا المدير.

ثم بصق عليه في تخفٍّ بعد تخطيهما إياه، لاحظ «كريم» اشمئزازه.

ـ مين دا؟! شكلك جايب منه جاز.

ـ دا مدير المستشفى.. راجل نجس ابن وسخة.

ـ ليه؟ عمل إيه؟

وقفا أمام أحد المصاعد منتظرَين هبوطه، استند «مناع» بذراعه إلى حافة الحائط ومال بجسده تجاه «كريم»، ثم همس له:

ـ راجل كيفه البنات الصغيرة.. خصوصًا الممرضات وبتوع النضافة، مع إنه يا أخي متجوز مكنة أمريكاني ولا أفلام السيكو سيكو.. سمعت إنه يحب يضربهم.

ـ تقصد سادي يعني؟

ـ أيوه.. هي الكلمة دي.

فُتح باب المصعد فاستقلاه معًا، أُغلق الباب فكانت فرصة جيدة لاسترسال «مناع» في باقي الحديث:

ـ مرة خرق بت غلبانة من بتوع النضافة وحبلت منه.. كانت هتبقى فضيحة بجلاجل.

ـ طب وبعدين حصل إيه؟

ـ رمى لأهلها قرشين اشترى بيهم عرضهم.. كانوا غلابة خدوهم وسكتوا.

شرد «كريم» في كلامه، ثم غمغم:

_ The devil is in the details.

ـ بتقول إيه يا «كريم»؟

ـ بقول: منتظر إيه من واحد بيدير مستشفى بيتاجر في الأعضاء؟

نزلا من المصعد ودلفا إلى غرفة ذات سرير واحد جلس عليه «كريم»، ثم التفت إلى «مناع» حين قال:

ـ مش عاوزك تتكلم مع حد، اللي يسألك قول إنك تبعي.. ماشي؟

ـ حد زي مين؟!

ـ أي حد يا «كريم»، ما عدا الدكتور، هو عارف كل حاجة.

مرَّت دقائق من الانتظار، ثم دلف أحد الأطباء إلى الغرفة ممسكًا مكعب «روبيك» يتلاعب به بأصابع اليد الواحدة بمهارة فائقة وكأنه جزء من جسده، نظر إلى «كريم»، ثم رفع يده سريعًا بإصبعين متلاصقتين بجوار جبينه بدت كتحية له، أخذ يهمس لـ«مناع» جانبًا في تبادل للنظرات مع «كريم»، وعلى الرغم من كونها المقابلة الأولى بينهما فإنه كان ينظر إلى الطبيب وكأنه يعرفه من قبل، ظل يرمقه وهو جالس في سكون وثبات واضح، ثم فاجأه الطبيب وسأله:

ـ صايم بقى لك كام ساعة؟

ـ 18 ساعة.

ثم عاود الطبيب سؤاله:

ـ أخدت الحقنة الشرجية؟

ـ من ست ساعات.

زحفت قدما الطبيب خطوات حتى استقرَّ أمامه، ثم أزاح بيده جزءًا من قميصه الذي يرتديه، فوجده يرتدي قلادة بها حرف «k» لفتت نظره، فسأله:

ـ حلقت شعر صدرك وبطنك؟

حينها نزع «كريم» قميصه وجلس عاريًا:

ـ زي ما انت شايف كدا، أبيض مقلم بأبيض.

ـ طب ماتنساش تبقى تقلع السلسلة دي.

وندَّت منه التفاتة إلى «مناع» قائلًا:

ـ خليه يقلع باقي هدومه ويلبس «الجاون»، وبلغ دكتور التخدير، هندخل العمليات دلوقتي.

ثم خرج من الغرفة بخطوات متسارعة.

سأل «كريم»:

ـ مين دا؟!

فأجابه «مناع» وهو ممسك بهاتفه يبحث عن رقم دكتور

التخدير:

ـ دا جزار المستشفى.

ـ اسمه إيه يعني؟

ـ هتفرق معاك يا عم «كريم»؟ اقلع هدومك، بلاش عطلة.

بينما كان يتجرد من ملابسه أعاد سؤاله:

ـ مش من حقي أعرف على الأقل اسم الدكتور اللي هيشرِّحني؟!

ضحك «مناع»:

ـ لأ في دي عندك حق، اسمه دكتور «فارس» يا سيدي.

ـ وإيه حكاية اللعبة اللي كان ماسكها في إيده دي؟

ـ دي يا سيدي مابتفارقوش.. وخصوصًا قبل أي عملية.

نضا عنه ملابسه إلا ما يستر عورته، ثم ارتدى «الجاون» الطبي الأزرق، اخترق باب الغرفة سرير جرار يزجُّ به أحد العاملين، امْتَطَاه بهمَّة وفرد بدنه الصلب عليه، وتبدلت زاوية الرؤية، فلم يرَ سوى سقف الغرفة والطرقات حين بدأ العامل في الزجّ به متجهًا صوب غرفة العمليات، حينها أخذ يلتوي برأسه يمينًا ويسارًا ينظر إلى معالم المشفى

الداخلية، يجاوره «مناع» سيرًا على قدميه، فوضع يده على صدره:

ـ ما تقلقش يا «كريم».

ابتسم له في ثبات، ثم قال:

ـ كوباية الشاي اللي شربتها عندك في السطح كانت تقرف الكلب.. لما أخرج بالسلامة هاعزمك عندي وأدوَّقك الشاي اللي على أصوله.

ضحك «مناع»، ثم دلفا إلى غرفة العمليات، انتقل من السرير المتحرك إلى آخر ثابت، فعلها متفحصًا كل الموجودين في الغرفة، لم تظهر منهم سوى أعينهم، سترت ملامحهم تلك الأقنعة الوقائية، ارتمى بجسده على سرير مرتفع نسبيًّا عن الأخير، ينظر إلى الكشافات أعلاه، جاءه متخصص التخدير وبدأ في محاصرة خلاياه العصبية الحسية، فتلاشت الدنيا تدريجيًّا من حوله، وضعف بصره، ثم أغمض عينيه دون إرادته، ثم ظلام باهت نتوه فيه الأرواح، وبرد شديد تصطكُّ منه الضروس، ثم فتح عينيه ليجد «منير» يجلس أمامه في الغرفة، فتنهد قائلًا:

ـ أنا بِعْت حتة من جسمي.

قالها ثم أوضح بعدها أنه كان يمرُّ بضائقة مالية كبيرة، كان مهدَّدًا بالحبس، تخلى عنه كل من يعرفه، ولم يجد سبيلًا للخروج من نفق الدَّيْن المظلم، أزمة مالية كادت تُسكنه بين جدران السجون، حتى علم بالصدفة أن بإمكانه

بيع أحد أعضائه بثمن جيد سيساعده في تجاوز تلك الأزمة، كالمستجير من الرمضاء بالنار، وبعد أن تقصَّى وبحث كثيرًا، اهتدى للوسيط، كان ذلك الوسيط هو «سيد الونش»، لكن لم يحالفه الحظ للوصول إليه، لقي حتفه قبلها بأيام، شاءت الأقدار أن يستقبله «منير» في المقهى الذي قصده للقاء «الونش»، وكان الفضول سيقتله حينها لمعرفة سبب قدومه باحثًا عنه، ظل يسأل ويسأل حتى علم كل شيء منه، أخبره «منير» أنه يعمل هو الآخر وسيطًا، وأنه كان منافسًا له في ذلك المجال، وذلك سر عداوتهما، ووعده بأنه سيساعده، ويضمن له ثمنًا يكفيه لحل أزمته، كان يشرح والجمع يسمع في صمت، بمن فيهم الملثمة، ثم أقسم إنه لم يرَ «الونش» في حياته، ونظر إلى «منير» قائلًا:

ـ فيه حاجة غير اللي أنا قُلتها دي يا «منير»؟

نظر الجميع إلى «منير»، فنكس رأسه على الطاولة في حالة من التوتر، محاطًا بأعينهم من كل اتجاه، ينتظرون إجابته، ثم رفع رأسه تجاه «فارس» وسأله:

ـ إنت تعرف «سيد الونش» ولا لأ يا دكتور «فارس»؟

انتقلت أعينهم إليه، كان يتلاعب بمكعب «روبيك» بين يديه، فأجاب وهو ينظر إلى المكعب:

ـ لأ ما حصلّيش الشرف الصراحة.

سبَّه «منير»:

ـ كداب.. إنت تعرفه كويس.. ووجودنا هنا مش صدفة.

ثم شرح «منير» أنه لم يكن يومًا وسيطًا في تجارة الأعضاء، ولم يمتهن تلك المهنة الحقيرة، ولكن في أثناء رحلة بحثه في غموض اختفاء شاب يُدعى «أنس»، صادف شخصًا اسمه «مناع» كان على علاقة وطيدة بـ«الونش»، ومع مرور الوقت علم أنهما كانا يعملان وسيطين يتصيدان الفقراء معدومي الدخل وأصحاب الأزمات المالية لجني المال من بيع أعضائهم، طلب «منير» من «مناع» الدخول في تلك الشبكة بادِّعائه أنه يريد العمل وسيطًا مثل «الونش»، واستغلَّ رغبة «كريم» الذي أراد بيع كُلْيته لحل أزمته المالية كمر للاقتراب من تلك الشبكة، وأكد أن «فارس» الذي أنكر عدم معرفته بـ«سيد الونش» يكذب، وأن معه دليلًا قاطعًا على أنه على معرفة جيدة به، حيث سجَّلت كاميرات أحد المقاهي وجودهما منفردين في لقاء يُظهر عكس ادعائه...

قاطعته الملثمة:

ـ الفيديو دا فين؟

نظر إليها «منير»:

ـ على الموبايل بتاعي.

ذهبت الملثمة خلف «منير»، ثم انحنت بجسدها،

وأخرجت مجموعة من الهواتف المحمولة عرضتها أمام وجهه:

ـ أي واحد في دول تليفونك؟

قبض من بين الهواتف على هاتفه، ثم في ثوانٍ معدودة فتحه، وبدأ في تشغيل الفيديو، ثم وضع الهاتف على الطاولة، وزجَّ به يزحف في اتجاه «فارس»، حتى استقر ما بين ذراعيه بجوار مكعب «روبيك»، ثم هتف «منير»:

ـ مش اللي في الفيديو دا إنت و«سيد الونش»، ولا أنا باهذي؟

لم يتحرك منه سوى جفنيه اللذين هبطا إلى نصف عينيه للتستر على رغبته في مشاهدة الفيديو، شعر بخطوات الملثمة تقف خلفه ترمقه وتنتظر رد فعله، أزاح الهاتف من أمامه بغضب:

ـ أخوكي «سيد» ماكانش بيبيع سِبَح، من الآخر كدا الجنازة حارة والميت كلب.

أثارت كلماته اضطرابها، فأطاعت غضبها، وقبضت بين كفِّها ما استطاعت من شعره بقوة، وأخذت تؤرجح رأسه بعنف، لم تُسعفه يده للتخلص من قبضتها، ثم اقتحم الغرفة رجل آخر ملثم، فتح بابًا يصعب ملاحظته في الجدار، دخل يحمل سلاحًا ناريًّا، ثم أشار لها بالتوقف:

ـ لو مش هتلتزمي بقوانين الغرفة هتخرجي وأجيب حد مكانك.

أفرجت عن رأسه من بين قبضتها، واستكانت، فعاد الرجل أدراجه، ثم أخذ الجمع يختلسون النظر بعضهم إلى بعض في رهبة، أيقنوا جميعًا أن جعبة الأحداث ما زالت مكتظَّة بالمفاجآت، وأنهم جميعًا تحت طائلة مجموعة منظمة.

****

«أفرَاد الأُسرة كالأوْتار في آلة مُوسيقيَّة، لِكلٍّ وتر نَغمَته الخاصَّة التي تُميزه وتضيف إلى حياة الآخرين تَناغُمًا وانْسجامًا، وفي غياب أحد الأوْتار يحلُّ النَّشَاز في إيقَاع كُلِّ شَيْء».

كانت «شمس» بجوار والدتها تجلسان على أريكة ناعمة تغري بالكسل، تنتظران نزول دكتور «زين» من الطابق العلوي بعد عودته من رحلة بحث لا تنتهي عن «أنس» بمعاونة «منير»، انتظار طويل للحظة فرج أكثر ما يؤلم فيها أن الأمل في حدوثها يتلاشى مع الأيام.

كَسَرَ الحزن قلوبهما وأحاطتهما عتمة الفراق، أقبل عليهما «زين» بخطوات خائرة، تليق بكهل خذلته الدنيا، يجرُّ خلفه أذيال اليأس، تقبض يده على سور السلم في تلاحم يأكل الجلد، ونسيت قدماه أبعاد الدرَج الذي اعتاده يوميًّا، رأت عيناه زوجته من بعيد، وجدها تجلس جسدًا خاويًا بلا روح، بقايا إنسان مزَّقته لوعة الفراق، وكشف الحزن عن تجاعيد الكِبَر.

حين اقترب منهما شدَّ قامته ونفض عن وجهه ملامح اليأس، حاول أن يتظاهر بالصمود والإيمان، ذهب إليهما في اتزان مفتعل، ثم أَنَاخَ جسده ببطء وجلس ينظر إليهما من خلف عدساته وهو يرتب ما يجب قوله، لكن زوجته بادرته بالسؤال قبل أن يبدأ:

ـ وصلت لحاجة؟

خلع عن وجهه عويناته، وأمسك أحد طرفيها البلاستيكيين وحشره في أذنه اليمنى، وبدأ في مداعبتها بشكل دائري، انكسرت عيناه قليلًا يتلذذ بنعومة احتكاكها بجوف أذنه، ثم ألقاها على المنضدة أمامه، وأخذ يدلِّك مقلتيه بإبهامه وسبابته، يطيل الوقت يبحث عن مخرج، ثم أردف في أسى:

ـ إن الله مع الصابرين.

ارتعشت وجنتاها مصحوبة بدموع كانت تحتجزها، فانهالت رغمًا عنها دون توقُّف، ثم صرخت:

ـ يعني إيه؟! ابني ضاع خلاص يا «زين»؟! مش هاشوفه تاني؟!

احتضنتها «شمس» تحاول مواساتها والتخفيف عنها، ثم نظرت إلى والدها في توسُّل له أن يلقي بادرة أمل في كلمات مغلفة باللين والرفق، خوفًا عليها من أي مضاعفات قد تسلبها حياتها، فهمهم «زين» بكلمات مبهمة، فسألته «شمس»:

ـ بتقول إيه يا بابا؟!

ردَّ بصوت مسموع:

ـ هو أنا قُلت حاجة غير إن الله مع الصابرين؟

علا صوت رنين هاتفه، أخرجه متفحصًا رقم المتصل، فلم يستطِع تمييزه دون عدساته، التقط نظارته مرة أخرى، ليجده رقمًا غريبًا، لم يبالِ بالرد، نفدت طاقته، ترك الهاتف أمامه حتى صمت، نظرتا إليه في تعجُّب، فليس من شيمته تجاهل المكالمات بحكم منصبه.

ـ أنا مش ناقص وجع دماغ، ومش مستحمل أسمع صوت حد.

قالها منكّسًا رأسه يمسح جبينه يسترق النظر إلى الهاتف، يحمل فوق رأسه هموم المجرَّة، لكن رنين الهاتف أفسد عليه رغبته في الحصول على بعض الهدوء المؤقت، ضرب في إزعاجه من جديد، ظل ينظر إلى هاتفه في عناد.

ـ ما ترد يا «زين» وتشوف مين دا!

أطاع زوجته ورد على المتصل في خمول وضيق، لكن سرعان ما تبدَّلت حاله، اتسعت عيناه في ذعر، وانتفض من مجلسه يتحرك بخطوات بطيئة وبساقين هزيلتين، فكاد ينكفئ على وجهه، ثم صرخ:

ـ إنت فين يا «أنس» يا حبيبي؟!

جرت الدماء في عروق زوجته دون رفق كأرض بور متعطشة للمياه، أخفق قلبها بشدة وأصابها الخرس المؤقت من هول صدمتها، انهارت كل ذرة متماسكة بها، تراخت الأعصاب واستُثيرت الغدد، فتدفق الأدرينالين في جسدها كالطوفان، وانفرط عنقود الوقار، فشعرت بسخونة المياه تغمر نصفها السفلي.

ـ إنت فين يا ابني؟! وبتتكلم منين؟!

ثم صمت مهيب وترقب لـ«زين» الذي تجمَّد مكانه والتحم الهاتف بأذنه، لحظات من بعدها تراخت ذراعه تتأرجح كالبندول جيئةً وذهابًا حتى أسقط الهاتف أرضًا، والتفَّ برأسه يقول:

ـ «أنس» بخير.

هرولت «شمس» تلتقط الهاتف في محاولة لإعادة الاتصال بالرقم الأخير، لكنه خرج من نطاق الخدمة، لحظت «شمس» لشاشة الهاتف تتفحص الرقم الذي بدا لها مألوفًا، نظرت إلى والدها الذي ظهرت عليه أمارات التوتر محاولًا الهرب من تساؤلاتٍ نَضَحَت على ملامحها.

****

عجوزٌ تحمل فوق كتفيها كومةً من السنين تعبر بها الطريق بالكاد تزحزح كاحليها عن الأرض، بخطى وئيدة مسحت الأسفلت بجلبابها المهترئ، لم تُبالِ بصوت أبواق السيارات التي اعترضت على خطواتها المملة، وكيف تهتم وهي في معزل عن الأصوات منذ أن خُلقت؟! صماء بكماء مثلها لا تعلم عن الضوضاء شيئًا ولا تشارك فيها، نجحت في شقِّ غبار الجو الخانق والحر الذي لا يطاق، ووصلت كالسلحفاة إلى قارعة الطريق ومن خلفها كلبان يتبعانها، كأولادها الصغار، لا يفارقانها في أي مكان، التفتت إلى السيارات، فاستقرأت شفتي أحدهم ينهال عليها بالسِّباب مع نظرات حانقة، فعقدت حاجبيها وزمَّت فمها، ثم وضعت على ذقنها كفَّها ملتصقة الأصابع كسيف اليد، ومضت في خطواتها غير عابئة إن كان قد فطن إلى معنى تلك الإشارة أم لا، التي تفيد بأنه «ابن عاهرة».

حاك الزمن في وجهها خيوط الشيب، وطرَّز جبينها بعلامة انتهاء مدة الصلاحية، أنفها مدبب كالغربان، وفم صغير يخدر تحته ذقن منقوش بوشم أخضر، غريبة الأطوار، تتصرف كالمجانين، تأكل كالأنعام، وإذا بدأت بالإشارة تحدثت بطلاقة تعجز عنها الألسن.

ارتطمت بجسد صلب لأحد المارة، فصرعها أرضًا، وانحصرت بين قدميه، ظهرت لها بقع دماء تلطّخ حذاءه، أمسكته من بنطاله تحاول النهوض، رفعها عن الأرض بعنف وتوتر، لم يُعطِها فرصة لابتلاع ريقها، وغادر مسرعًا

غير مبالٍ بنباح الكلبين.

أكملت بعدها المسير حتى وصلت إلى بنك الطعام اليومي الخاص بها، أحد صناديق القمامة في ضواحي القلعة، كان الصندوق رمزًا للقمامة ليس إلا، لم يُستخدم يومًا لاحتوائها، لقد أجمع الأهالي على أنه مجرد شعار تحفُّه القمامة من كل جانب، جلست على حجر وسط المخلفات كعادتها تُشعل بقايا سيجارة كانت تحتفظ بها، سعلت ثم أصدرت صوتًا متحشرجًا كالبهائم حين تُخَر، حام حولها الكلبان، أخذت تتأمل ما بين النفايات حتى وقعت عيناها على جيفة تفوح منها رائحة النتن لقطٍ انتفخت أحشاؤه وأوشكت على الانفجار، واصلت التدخين دون أن يمتعض وجهها أو تشمئز نفسها من الرائحة، حتى تلك الذبابة التي استقرَّت على شعيرات شاربها البيضاء لم تستحق منها عناء الاهتمام، فبؤس الحياة وضنك المعيشة سلباها أهم تفاصيل آدميتها، امرأة مشوهة نفسيًّا متبلدة المشاعر لا تكترث لشيء سوى ما يسد جوعها، ويضمن لها البقاء وسط الأحياء، تكالبت عليها الدنيا فأماتت عندها كل تفاعل أو انطباع فطري للوجود الخارجي.

قذفت بإصبعيها السيجارة كرجل يستعرض قدراته في النشان، ارتشقت بين فكي القط، نخرج منه بعض الديدان، قامت تتجه إلى غايتها، الكيس الأسود الذي تبحث عنه بين النفايات، كيس مميز ببقايا منازل الأثرياء، كم تمنَّت إبرام عقد مع صاحبه، ماذا لو وفَّر عليها عناء

البحث ومنحها إياه بعيدًا عن جيف القطط والكلاب، لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

عجزت عن رفع الحقيبة، تعجَّبت! حاولت مرة أخرى مع مزيدٍ من العزم، لكن لم تستطِع، فلم تملك جُهدًا كافيًا لهذا الوزن، ظنَّت أن بنك الطعام قد مَنَّ عليها بجرعة زائدة سوف تغنيها عدة أيام، انحنت لفكِّ عُقدة الحقيبة، ضجرت من تعنُّتها وتيئَّست أناملها الهزيلة، فاستعانت في فتحها ببقايا أسنان لم يقتلعها منجل الزمن، بلُعاب فمٍ منهمر نبشت في الحقيبة ببطء، ثم وضعت يدها تتفحص محتواها، لم يقشعر بدنها حين لامست كفُّها فروًا كثيفًا، بل قبضت عليها ورفعتها إلى السماء بمعجزة، لم تعِ للوهلة الأولى أنها تقبض على رأس بشري، ظَلَّت تُحْلِق إلى الرَّأس الذِي تسقط مِنه قَطَرات دمٍ قَاتِمة، ويتأرجح أسفله لحم مُهلهل، كان لرجل ذي شعر أسود كثيف، جعلت الرأس أقرب ما يكون إلى وجهها..

« ميت يتفحص ميتًا »!

ثم أخرجت لسانها للرأس في خيبة أمل، لاحظت شيئًا محشورًا في فمه، تعجَّبت حين بدأ سرب من الذباب يتطاير في اتجاه واحد، يغادر المكان بهمجية، يخترق المسافة بينها وبين الرأس بأفواج كثيفة، هي لا تسمع، لكنها ترى الأشياء دون تشويش، وتترجم أي حركة للغة بصرية أسرع من الصوت، نظرت عن يسارها لتكتشف سبب هياج الذباب، فوجدت أُناسًا يقذفونها بالحجارة، فقد

خال لهم أنها قاتلة نَحرِفة، نال من جبينها حجر فمادت بها الأرض، وسقطت متخطيةً حدود صندوق القمامة على أرض الشارع وبين ذراعيها الرأس.

****

تسللت أشعة الشمس الدافئة قبل الغروب ورسمت خيوطًا عريضة متفاوتة الألوان داخل كافيتريا «الحرية»، ارتسمت الحياة على هيئة ضوء مبهج متناغم مع كل هذا الكمّ من الروائح الجميلة للكراميل المذاب في الزبد مع صوص الفراولة المنسدل على جانبي قطع الكيك الإسفنجي، وطاولات تحضير الطلبات التي تراصَّ عليها عدد وفير من «الكاب كيك» الذهبي الذي لا يزال يحتفظ بحرارة الفرن، تفوح منه رائحة الفانيليا الشهية وشوكولاتة الـ«فيريرو روشيه»، ممتزجةً بأبخرة الحليب المغلي مع رائحة البن البرازيلي النفَّاذة، لتخلق في هواء المكان عبقًا يسيل له اللعاب، وتنتشي به النفس.

طفت فوق رؤوس الجالسين صينية دوارة، يتحكم بها أحد العاملين في مهارة فائقة، حملها فوق راحة يده بإحكام، يستعرض قدرته في التلاعب بها وسط الحاضرين في فقرة أكروباتية أشبه بلاعب السيرك الذي يراهن على مهارته.

تعلَّقت أعين مُريدي المكان بحركته المرنة ما بين الطاولات، وزادت دهشتهم لتلك الأكواب المملوءة المصفوفة فوقها، سارع غرباء الكافيتريا إلى تسجيل تلك اللقطة الفريدة بكاميرات هواتفهم، حتى هبط بها على إحدى الطاولات، وبدأ بإنزال المشروبات عليها مبتسمًا بكل ثقة، استقبلت ابتسامته «شمس» بفتور، واكتفت بشكره بمنتهى الجفاء، لاحظ ذلك «منير» الجالس أمامها، فربت على كتف العامل، وأشار إليه بالانصراف مسرعًا،

ثم ارتشف من القهوة قليلًا، وهو ينظر إليها في ترقُّب حين قالت:

ـ واضح إنك إنسان ذكي جدًّا يا «منير».

ترك قهوته، وعقد أصابعه يبتسم لها في تَباهٍ ينتظر مزيدًا من المديح، لكن صمتها أوحى بغير ذلك، نظرتها الحادة وملامحها العبثية كانت سهلة الاستقراء له، لم تكن تقصد الثناء عليه، بل كانت تشير إلى غموض شخصيته، ذابت ابتسامته، ثم أردف:

ـ من ساعة ما قررت أدخل بيتكم وأنا عارف إني هاكون محل اتهام.

أخذت تُقلِّب «النسكافيه» بهدوء، ثم طبعت شفتيها على حوافِّ الكأس بختم قرمزي، ثم أردفت:

ـ كل دا عشان بقول عليك ذكي؟!

التفت ينظر عبر الزجاج إلى الشارع، نفث زفيرًا حارًّا برائحة القهوة، يحاول به كسب مناعة ضد الغضب، وحماية نفسه من أعراض التوتر، لكنه لم يمنع أصابعه من النقر فوق سطح المنضدة، وتشنّج عصب عينه اليمنى، ثم نظر إليها وسأل:

ـ ممكن أعرف إنتي طلبتي تقابليني ليه يا «شمس»؟!

ـ حاضر.

مالت بجسدها نحو المقعد القابع عن يمينها حيث تركت

حقيبتها الشخصية، وغابت يدها بداخلها لبرهة في ترقُّب منه، يتساءل ماذا تنوي أن تفعل! ثم اعتدلت دون أن تُخرج شيئًا، تبادلا النظر في صمت مشحون بالغضب، بدا له الأمر غريبًا، حتى كسر تلك اللحظات صوت رنين هاتفه.

ـ رُدّ يا «منير» على تليفونك.

قالتها مبتسمة تُراقب ملامحه، لم يتدارك حتى اللحظة ماذا تخفيه، أخرج هاتفه دون أن يرفع عينيه عنها، ثم اندهش حين وجد أن المتصل هي.

ـ مش فاهم! إنتي بتتصلي بيَّ وفي نفس الوقت بتطلبي أرد عليكي؟! إنتي بتهزري، مش كدا؟!

ضحكت في سخرية، ثم أردفت:

ـ مش دا رقمك اللي اديتهوني بشكل استثنائي عشان لو احتجتك في مساعدة؟! والمفروض إن الرقم دا مش مع كل الناس؟ مش كدا؟!

ـ أيوه، إيه المشكلة؟ مش فاهم!

ـ لأ مفيش مشكلة ولا حاجة.. أصل دا نفس الرقم اللي «أنس» أخويا كلم بابا منه يا «منير»!

****

«محمد الحلبي» ضابط مباحث قسم الخليفة، كادت الأملاح تأكل جدار مثانته، شعر بالاسترخاء والنشوة بعدما أخرج البول من جوفه، خرج مسرعًا فلم يُطِقِ المكوث بعدها لحظة من رائحة المرحاض الكريهة، يهرول بخطى سريعة يزرر سرواله ويحكم غلق الحزام، منحه الأمين «هاشم» التحية العسكرية، ثم فتح له باب مكتبه، فدلف إليه متعرقًا:

ـ إمتى هترحموا ميتين أمي من ريحة الحمام بنت الجزمة دي؟!

ـ والله معاليك بلّغنا «البلوكامين» بس مش عارف ماجاش ليه!

جلس على مكتبه وسحب سيجارة من علبته الملقاة على المكتب، ثم أشعلها ونفث دخانها، وأخذ يحكُّ جلده بمؤخرة القداحة خلف شحمة أذنه:

ـ شوفلك صرفة، بدل والله أطرطر لكم في المكتب هنا.

ثم نظر تجاه العجوز حين وقفت مترنحة إثر إصابتها، كانت تجلس على أريكة أمامه، رفعت يدها تتحسس الضمادة التي تحفُّ رأسها، وعيناها ملتصقتان بمكتبه، خطت خطوة أشبه بالوقوع تجاه «الحلبي»، فهرول إليها «هاشم» يصرخ في وجهها:

ـ رايحة فين يا مرة يا مخبولة انتي؟!

أشار إليه «الحلبي» بالتراجع، وظل يراقب خطاها الوئيدة تجاهه.. وبشكل لا إرادي، أخذ ينقر سطح المكتب بالقداحة، كلما وطئت قدماها الأرض ضرب بالقداحة المكتب في تناغم صوتي حركي غير مقصود، حتى استندت إلى المكتب، وأخذت علبة السجائر خاصته، ثم سحبت منها واحدة دسَّتها بين شفتيها في تعجُّب منه، ثم قذفت العلبة بين ذراعيه، ومالت بجسدها الواهن تحاول الوصول إلى القداحة في راحة يده، عصر أصابعه مبتسمًا حتى يصعب عليها سحبها، فلما تعسَّرت رفعت حدقتيها تحملق به، فرأى فيهما الموت، عينين يائستين هجرتهما الحياة منذ زمن، أطلق سراح القداحة من بين أصابعه، فاقتلعتها، ثم أشعلت السيجارة وهي تنظر إليه، ثم عادت حيث كانت، جلست أمامه تُدخِّن دون اكتراث، ضحك «الحلبي» ثم نظر إلى «هاشم»:

ـ استعجل لنا يا ابني «طاهر الجابري» قبل ما تخلَّص لي علبة السجاير.

ـ كلمته معاليك.. كان على باب القسم، زمانه داخل علينا.

كان لـ«الحلبي» وجه بيضاوي، يُقال عنه في علم الفراسة وتحليل الوجوه إن صاحبه ربما يكون عاطفيًّا، مثاليًّا، طموحًا، لبقًا.. لكن المؤكد أنه يكره الصيف ومَن والاه، له شارب كثيف منحه رتبة ضابط قبل دخوله الكلية، وحسنة بارزة تُرصِّع خده الأيمن، تمنحه جاذبية تُسأل

عنها زوجته التي لا تكف عن العبث بها كل يوم، رقمه المفضل «11»، يتفاءل به، كان هذا الرقم محفوراً بين حاجبيه منذ ولادته، تجويف رباني أشبه بالوشم يظهر للعيان بوضوح إلا إذا غضب تضاعفت الحسبة لتصبح «111».

تحذير مهم: لا يُنصح ببلوغ ذلك الرقم!

مرت ثلاث دقائق من الانتظار، ثم دخل عليهم الضابط «طاهر»، متخصص لغة الإشارة، شاب وسيم، له حضور طاغٍ لافت للأنظار، ابتسم لـ«الحلبي» وصافحه، ثم جلس عن يمينه.

ـ عامل إيه يا «طاهر بيه»؟

ـ الحمد لله معاليك.. ممكن تفهمني تفاصيل عن الحوار بسرعة؟

ـ وما له؟ بص يا زعيم.. جالنا بلاغ من أهالي منطقة القلعة، ولما وصلنا هناك لقينا الست دي فاقدة الوعي وحاضنة راس بني آدم في مقلب زبالة.. والمشكلة ولا معاها بطاقة ولا أي نيلة، ومش فاهمين منها حاجة.

نظر «طاهر» إلى العجوز فلاحظ إصابتها:

ـ حد ضربها ولا إيه؟

ـ أيوه.. أهالي المنطقة ضربوها بالحجارة.

ضحك «الحلبي»:

ـ إيه يا «طاهر»؟ إنت جاي تستجوبني أنا؟ تعالى يا «هاشم» اقعد عشان تكتب أقوالها خلينا نخلص.

جلس «هاشم» عن يساره، ثم قبض على بعض الأوراق، وحَزَّ أطرافها على المكتب، وأمسك القلم ينتظر في تأهُّب وشغف، ثم طلب «الحلبي» معرفة اسمها، فبدأ «طاهر» بالإشارة إليها كي يلفت انتباهها، ثم بدأ مخاطبتها بيده:

ـ لا تخافي، الأمر بسيط، مجرد بضعة أسئلة وسترحلين، أنا اسمي «طاهر»، أتيت خصيصى لأجلك، سوف أكون الوسيط بينك وبينهم، هل تفهمين القاموس الإشاري؟

نظرت إليهم جميعًا لثوانٍ، ثم هزَّت رأسها لـ«طاهر»:

ـ نعم، أفهمك.

ـ أخبريني اسمك أولًا.

ابتسمت ثملة في سخرية، ثم أشارت إليه:

ـ لا أحد يكترث لاسمي، لكن كما فعلتها أنت.. إذا أردت أن تناديني يجب عليك تنبيهي بحركة أو إشارة، أو لمس كتفي، أو كما يفعلها بعض الأغبياء بضربي من الخلف. أيها الوسيم، الأسماء تنتمي إلى عالمكم فقط، وعلى أي حال أتذكر أن اسمي «مَنون».

ـ دي طلعت فيلسوفة «معاليك».

ضحك «الحلبي»:

ـ ليه؟ طلع اسمها «أرسطو»؟!

ـ لأ، اسمها «مَنون»، بس بتقول كلام كبير قوي.

ألقت ما تبقَّى من السيجارة، ثم سحقتها بقدمها العفنة بعشوائيَّة، كما لو كانت تجلس في بنك الطعام الخاص بها، لم يحتمل فعلتها «هاشم» فزفَر ضِيقًا:

ـ يخرب بيت أم نتانتك يا شيخة.. الواد لسَّة منضّف المكتب.

أسكته «الحلبي»، ثم أمر «طاهر» باستكمال استجوابها، ومعرفة ملابسات ما حدث من البداية بالتفصيل، فأشار إليها:

ـ أخبرينا ماذا حدث بالتفصيل يا «مَنون».

أشارت إليه:

ـ أنا امرأة مكلومة مُهمَّشة، لم تعترف بي الحياة، بلا أهل، أبيت في العراء، لا ملجأ لي ولا ملاذ، تَأَفَّفْتُ من نَهْر الناس إياي، فتعففتُ سؤالهم، فكانت صناديق القمامة أحنَّ وأبَرَّ عليَّ من البشر، قصدت اليوم ذلك الصندوق للحصول على وجبتي من بقايا العابرين، وبالأخص ذلك الصندوق دون غيره؛ لأنه يحوي مخلفات الأثرياء، وما أدراك بمخلفاتهم! فيها ما لذ وطاب لمعدومة مثلي، لكن.. وجدت رأسًا مقطوعًا بدلًا من وجبتي.

ترجم «طاهر» ما ورد منها، فسجَّله «هاشم» في سرعة فائقة، أشعل «الحلبي» سيجارة جديدة من نار الأخيرة نفسها، ثم أردف:

ـ الناس قالوا إنها كانت بتتعامل مع الراس كأنها عروسة لعبة.. مارميتهاش ليه أول ما اكتشفت إنها راس بني آدم؟

شرع برفع يده ليسألها، فاستوقفته مبتسمةً وبدأت بالإشارة:

ـ لا عليكَ بالشرح؛ فأنا أستقرئ الشفاه جيدًا، حتى لو كانت شفاهًا كريهة مقرفة مثل التي يملكها «هاشم».

ثم هزت رأسها تضحك في رتابة، وأشارت:

ـ لولا ذلك الحجر الذي شقّ جبيني لكان عشائي لحمة رأس..

جحظت عينا «طاهر» لها مستنكرًا، ثم أكملت:

ـ لا ترتعب أيها الوسيم؛ فأنا أمازحك، فم الرأس كان محشورًا به شيء، لا أعلم ما هو، أشبه بكيس بلاستيكي، حاولت استكشافه ولكن لم أستطِع.

نظر «طاهر» إليهما قائلًا:

ـ خد بالك دي بتقرأ لغة الشفايف كويس جدًّا.. وبتقول كان فيه حاجة محشورة في بُق الراس المقطوعة.

رفع «الحلبي» سماعة هاتفه وأمر بالتواصل مع طبيب المشرحة؛ لفحص الرأس جيدًا، وإرسال تقرير حال وجود أي أدلة جنائية، ثم وضع هاتفه، ونظر إليها يسأل بشفتين بطيئتي الحركة:

ـ طب ماشوفتيش مين رمى الشنطة دي؟

أشارت إليه برأسها أن «لا»، دون الحاجة إلى ترجمة، ثم التفتت إلى «طاهر» وأكملت:

ـ لكن، قبل وصولي إلى الصندوق، اصطدم بي شخص همجي، فصرعني أرضًا بين قدميه، وكانتا ملطختين بالدماء.

سألها «طاهر» عن مواصفاته:

ـ كان له طول مميزًا وجسد صلب، مفتول العضلات، ذا شعر أسود، ووجه جذاب، يبدو من ملبسه أنه من طبقة الأغنياء، وكان متوترًا.

ـ فيه أي أسئلة تانية محتاج معاليك تعرفها؟!

ـ لأ شكرًا يا «طاهر».. إنت عاوز تمشي ولا إيه؟! دا انت حتى ماشربتش قهوة ولا حتى كوباية شاي!

ـ والله مستعجل جدًّا ولازم أمشي حالًا، ماتش «ليفربول» كمان ساعة.

قاطعتهما «مَنون» وبدأت بالإشارة، أخذت كثيرًا من الوقت تخاطبه بلغة الإشارة، لاحظ «الحلبي» علامات الدهشة والتعجُّب على وجه «طاهر» في أثناء استقباله

إشاراتها، ظل منتظراً حتى انتهت، ثم همَّ بالترجمة قائلًا:

ـ طالبة من معاليك تحجزها في القسم هنا معاك.

نظر إليها «الحلبي» مقطب الحاجبين بفم مفتوح، ثم التفت إليه:

ـ مش فاهم.. هي خايفة من حاجة؟!

ـ لأ معاليك.. هي زهقت من الأكل من الزبالة.. عاوزة تضمن لقمة نضيفة ونومة ما بين أربع حيطان.. حتى لو هيكون حبس مع المجرمين.

****

الفصل السادس

غشيت الصمت كآبة، خصوصًا بعدما تبين لهم أنهم تحت طائلة مجموعة منظمة لها خطة وهدف، برزت وجوههم ذابلة من شدة القلق، وتجلَّت حائرةً من مصير مجهول، يتبادلون النظرات في وجوم، دارت الملثمة حولهم تنظر إليهم واحدًا تلو الآخر، نظرات حادة تبثُّ فيهم الخوف وتُشعرهم بقلة الحيلة، وقفت خلف «خطَّاب»، واستندت إلى أطراف كرسيه الخلفية، ثم اقتربت من أذنه تهمس:

ـ وانت يا «خطَّاب»، تعرف «سيد الونش»؟

التفت إليها ببطء حتى تلاقت أنفاسهما، ثم بتعجُّب:

ـ هو انتي نسيتي مين اللي كان يحقق في قضيته؟

قالها وهو ينظر إلى عينيها من خلف اللثام.

ـ عندك حق.. أنا آسفة.

قالتها بعين ضاقت ببطء، ثم اعتدلت:

ـ نسيت أسأل معاليك السؤال بشكل أوضح.

تركته وابتعدت حتى استقرت قدماها خلف «جمال منتصر» الذي يجلس قبالته، ثم أراحت ذراعيها على كتفه وعقدت أصابعها أمامه، ثم نظرت إلى «خطَّاب»:

ـ أقصد، كنت تعرفه قبل ما يموت؟

نظر لثوانٍ إلى «جمال منتصر» الذي طوَّقته بيديها، ثم رفع عينيه لها:

ـ لأ، ماكنتش أعرفه.

ندَّت منها ضحكة مسجوعة، ثم مالت على أذن «جمال منتصر»:

ـ إيه رأيك انت يا «جيمي»؟ تفتكر «خطَّاب» بيه بيقول الحقيقة؟!

ـ ماعرفش..

قالها في تردُّد، تحرك ظلها على المنضدة كعقرب ساعة حتى استقر أمام «فارس»، ثم انحنت وأخذت هاتف «منير» من أمامه وهي تقول:

ـ يعني «سيد» ماكلمكش قبل ما يموت وطلب يقابلك؟

ـ لأ.

ـ تبقى انت اللي نسيت إني أخته الوحيدة!

ـ مش فاهم!

ـ أصله الله يرحمه قبل ما يموت أكد لي إنه كلّمك وحدد معاد يقابلك.

أكملت طوافها حولهم حتى وصلت إلى نافذة الغرفة المظلمة، أدارت لهم ظهرها، وقفت تنظر عبر الزجاج في ترقُّب من الجميع، عدا «منير»، كانت تمكث خلفه

فلم يستطِع رؤيتها، نظرت إلى الساعة في رسغ يدها، ثم رفعت رأسها للزجاج، وأخذت تنقره بسبابتها، ثم صرخت:

ـ «خطاااااااب».. جوه الأوضة دي اللي هيخليك تقول الحقيقة

توقَّف الزمن بعد تلك الجملة، قالتها مرة، لكنه سمعها ألف مرة داخل عقله، ارتعب «خطَّاب» وتجلطت الدماء في عروقه، وعَلِقت عيناه بها، وقفت أمام النافذة فترة دون الالتفات إليهم، تنظر إلى الغرفة المظلمة، تمنَّى «خطَّاب» لو اخترقت عيناه ذلك الزجاج المظلم وكشف عمَّا يخفيه، ولم يشغله عدا ذلك السؤال المفزع: ما الذي يمكنه ردعي خلف ذلك الجدار؟

****

بينما كان ينتظر «محمد الحلبي» داخل مكتبه تقرير المعمل الجنائي الخاص بالرأس المقطوع، دخل الأمين «هاشم» يحمل قهوته (السرياقوسي)، ثم وضعها على سطح المكتب بحرص، نظر «الحلبي» داخل الفنجان في تمعُّن:

ـ أخيرًا هاشرب قهوة مش صايصة!

ـ يا باشا دا أنا اللي عاملها بنفسي.

رفع الفنجان واشتمَّ رائحتها، فسرى في رُوحه الخدر، ارتشف منها برفق، فضربت بسحرها مزاجه في عقر داره، فحوَّلته إلى كائن وديع في ثوانٍ، ابتسم من بعدها لـ«هاشم»:

ـ إيه الجمال دا؟! تسلم إيدك يا زعيم.

ـ ربنا يعزك.. تؤمرني بحاجة تاني معاليك؟

كان الفنجان في دورته الثانية:

ـ خد، رايح فين؟

ـ هاقعد بره.

ـ لأ اقعد هنا في التكييف.. سيبك من فرهدة الطرقة.

جلس أمامه على أريكة جلدية سوداء بجوار الباب، قذف له «الحلبي» سيجارة استقرَّت بين إصبعيه، أشعلها، ثم نفث دخانها بين فخذيه وهو منحنٍ الرأس، ثم نظر إلى «الحلبي» الذي غابت عيناه في تصفُّح الهاتف، مرَّت دقائق من الصمت، مَد «الحلبي» يده تجاه المطفأة ثم رفع

عينيه لـ«هاشم»:

ـ عاوز تقول حاجة؟!

ـ معاليك وعدتني أكتر من مرة تحكي لي قصة الأمين «أبو جبل».

سحب النفَس الأخير من سيجارته، ثم دسَّها في المطفأة بِغلٍّ، ومسح قعر الفنجان بسبابته، ثم مرره على لسانه ليزيد من جرعة الكافيين في جسده، بينما ما زالت عيناه عالقتين في جوف الفنجان، ثم أردف:

ـ تقصد الواشي؟

ـ أيوه معاليك.. بس لو مالكش مزاج تحكي خلاص مش مهم.

ـ لأ عادي.. كدا كدا قاعدين مستنيين تقرير المعمل الجنائي.

استرخى «الحلبي» للخلف، ووضع كفيه خلفه رقبته، ثم تمطَّى، فسمع «هاشم» طقطقة عموده الفقري.

ـ بص يا زعيم.. الكلام دا مش للنشر، ولو حصل هيكون مصيرك زي «أبو جبل»، وأنا اللي هاعملها، مش حد تاني..

قالهَا بِتؤدة أضفَت على مَلامِحه الواضحة جِدِّية تُحتَرَز.

ـ يا باشا برقبتي!

نظر «الحلبي» تجاه باب مكتبه المغلق، وتذكر ذلك اليوم الذي دخل عليه الأمين «أبو جبل»، ليخبره بحضور سيدة منتقبة تُدعى «كارولين» تريد التحدث معه، فسمح لها بالدخول، تلك السيدة زوجة الثري «إلياس»، صاحب سلسلة محلات المجوهرات الأشهر في وسط البلد، رفعت النقاب مع أول خطوة لها داخل المكتب، كانت شاحبة الوجه، التهم الرعب تفاصيل أنوثتها بجلاء، ترتعش كورقة علقت بمروحة، كانت على خلاف مع النوم لليلتين، ظهر ذلك من سواد منتفخ أسفل عينيها، ولم تُبالِ بإخفائه بمساحيق التجميل.

كان قبل يومين قد اختطف تشكيلٌ عصابي منظم زوجَها، وجرت مساومتها على دفع فدية مالية كبيرة لإطلاق سراحه حيًّا، ورغم تهديدها بعدم إبلاغ الشرطة، فإنها فعلتها دون تردُّد، جاءت في ذلك اليوم إلى مكتب «الحلبي» لتبلغه بموعد تسليم الفدية:

ـ اتصلوا بيَّ.. عاوزيني أسلِّم لهم الفلوس بكرة.

قالتها في تلعثم كالأطفال، فاعتدل «الحلبي» في مجلسه:

ـ اتفضلي اقعدي خدي نَفَسك الأول.. اهدي، ماتخافيش.

وقعت على الكرسي تبكي، فانسدل على وجهها النقاب، رفعته وانتزعت من حقيبتها صليبًا خشبيًّا قبضت عليه بقوة، ثم ألصقته بجبينها بعدما تلطَّخ بقطرات دموعها وهي

تتضرَّع:

ـ أيها الرب الإله، أعترف بأني أخطأت إليك في كلامي وأفعالي وأفكاري، تعديت وصاياك، ها أنا أومن بأن الرب يسوع المسيح المُخلّص، وأنا أضع ثقتي في تضحيته خلاصي، يا يسوع.. كُن بجانب «إلياس» زوجي ولا تتركه، كُن بجانب «إلياس» يا يسوع.

كان «الحلبي» يرمقها في صمت، دون أن يقطع صلاتها وتضرُّعها، أشفق عليها من كثرة البكاء، فطلب من الأمين «أبو جبل» إحضار بعض المياه وعصير ليمون حتى يعوِّضها عن نزيف الأمطار الاستوائية التي تنهمر منها.

ـ مدام «كارولين»، ممكن تركّزي معايا شوية؟ أولًا: عاوزك تتطمّني، وأوعدك إن جوزك هيرجع بالسلامة إن شاء الله.. بس محتاجين مساعدتك معانا.

ـ أنا خلاص بموت.. مش مصدقة اللي يحصل.. حاسة إني بحلم وشوية «إلياس» هيصحّيني من النوم.

ـ مدام «كارولين»، عاوزك تحكي لي بهدوء كل تفاصيل المكالمة بينك وبينهم علشان نعرف هنتصرف ازاي.

أشارت بهاتفها إلى «الحلبي» تعرض له الرقم الذي أتتها منه المكالمة.

ـ سيبِك من الرقم، أكيد خط مضروب.. احكي يا

مدام اللي حصل.

قالها بنفاد صبر.

ـ هُمَّ قالو إنهم هيتصلوا بيَّ بكرة الساعة 12 الضهر وهيقولوا لي هاسلم لهم الفلوس فين، وحذروني تاني لو بلغت الشرطة هيقتلوا «إلياس».

في اليوم التالي، كان «الحلبي» وإدارة البحث الجنائي قد استعدوا بخطة مُحكَمة لمراقبة تحركات زوجة المختطف «إلياس»، وجرى تتبُّع موقعها بشكل مباشر من خلال هاتفها، وجُهِّزت سيارتها بكاميرات مراقبة تسمح لهم بمتابعة كل ما يحدث، بالصوت والصورة، وكان عليها أن تلتزم بتوجيهاتهم في أثناء عملية التسليم؛ لضمان سلامتها، من خلال سماعة وُضِعت في أذنها اليسرى.

استقلَّ «الحلبي» سيارة ذات دفع رباعي مع أربعة أفراد من الأمن ينتظرون تلك المكالمة التي تعد صفارة بدء المباراة، الكل في حالة تأهب واستنفار، وصوته لم ينقطع من أذنها، كان على تواصُل دائم معها، يبث فيها الطمأنينة، ورفعَ من معدل شجاعتها، ثم جاءت المكالمة المنتظرة، صمت الجميع ينصتون وكأنَّ على رؤوسهم الطير..

ـ ألو..

قالتها بصوت مهزوز:

ـ أيوه يا مقدّسة، حضَّرتي الأمانة؟

ـ أيوه معايا.. أعمل إيه دلوقتي؟

ـ إنتي فين؟

ـ في المقطم، تحت البيت.

ـ طيب اطلعي الدائري من صقر قريش المعادي.. خدي طريق الهرم وأنا هاكلمك تاني.

ـ حاضر.

تحركت بالسيارة ومن خلفها «الحلبي» على مسافة آمنة متحاشيًا لفت الأنظار، اتصل «الحلبي» عبر اللاسلكي بدورية قرب الدائري وأمرها بمسحه، والبحث عن أي مشتبه بهم دون الاشتباك معهم، مجرد تحديد نقاط ليس إلا، وعلى مشارف وصولها مطلع الدائري جاءتها مكالمة:

ـ ألو.. ألو.

ـ أيوه يا مقدّسة.

ـ أيوه معاك.. أنا على أول الطلعة أهو.

صوت مشوش، كلمات متقطعة غير مفهومة، الشبكة ضعيفة، ثم عاد:

ـ إحنا مش متفقين إن الداخلية بره اللعبة دي يا مقدّسة؟!

أصابتها الصدمة بالخرس المؤقت، ارتعشت أصابعها القابضة على مِقود السيارة، يتابعها «الحلبي» من خلال شاشة صغيرة أمامه، تحولت ملامحها كطفل تائه في زحام سوق مكتظّة بالبشر، اعتصر حينها «الحلبي» جهاز اللاسلكي بين يديه واحمرَّ وجهه كجمرة من جهنم، فأمرها بالتصرُّف من خلال السماعة قائلًا:

ـ ردّي عليه وجاريه في الكلام.. اعملي نفسك مش سامعاه.

ـ أنا مش سامعاك كويس.

ضحك كثيرًا، ضحكات أصابت «الحلبي» بالتوتر، وزادت من غضبه:

ـ إزيك يا «حلبي» باشا.. أنا عارف إنك سامعني كويس.

ثم سيل من الضحكات المستفزة، نظر حينها «الحلبي» إلى الضابط عن يساره لتتلاقى أعينهما في حيرة مفرطة، ثم صرخ:

ـ فيه حاجة غلط.

فأفزع بها جميع أفراد الأمن داخل السيارة، وزاد من توتر الجميع.

ـ عمومًا، مفيش مشكلة يا «حلبي» باشا، هنلعبها المرة دي عسكر وحرامية.. ونشوف مين أشطر. وانتي يا مرة يا وسخة كِلّي في طريقك زي ما انتي لحد ما أكلمك تاني، جوزك حياته مرهونة على سماعك للكلام، ماحدش من الداخلية هينفعك.

بكت بعدها بصوت مزَّق أوصال «الحلبي» وكل مَن سمعها، وبدأت السيارة بالترنُّح على الدائري، فكادت تصطدم بغيرها، بادر «الحلبي» بمحادثتها من جديد حتى يعيد اتزانها، ويسيطر على الموقف مرة أخرى:

ـ مدام « كارولين»...

قاطعته:

ـ «حلبي باشا».. مش مهم الشتيمة.. المهم إن حضرتك وعدتني إن «إلياس» هيرجع سليم لعياله.

صمت «الحلبي»؛ فقد انفلت منه زمام الموقف، ولم يعد يثق بالخطوة المقبلة، تبددت الكلمات على لسانه فارتجل:

ـ «إلياس» هيبات في بيته وسط عياله النهارده.. صدقيني.

مرَّت دقائق كسنين عجاف، حتى وصلوا فوق النيل، وجاءتها مكالمة:

ـ يا مقدّسة «كارولين»، بعد ما تعدّي النيل اركني العربية واستني.

أمرها «الحلبي» بتنفيذ ما طلبوه، فجنحت إلى جانب الطريق بعد حدود النيل ببضعة أمتار، فتوقف «الحلبي» على مسافة تمنحه رؤية جيدة للموقف عن بُعد، أفكاره مشوشة، لم تعُد لديه خطط بديلة، فتحول الموقف برُمّته كأنه طائرة أقلعت في الهواء بنجاح، ثم تعطَّل المحرك.

ـ معايا يا مقدّسة «كارولين»؟

ـ أيوه معاك.

ـ وأكيد طبعًا «حلبي» باشا معانا!

قالها باستهزاء وسخرية:

ـ بصي كدا قدامك على اليمين هتلاقي صندوق زبالة بلاستيك لونه أخضر.

ـ أيوه شايفاه.

ـ انزلي حطي الفلوس فيه وارجعي عربيتك بشويش.

انقطع صوتها تزامنًا مع أنفاسها لثوانٍ تنتظر توجيهات

«الحلبي» من خلال السماعة، لم تكن الوحيدة التي تنتظر، بل كل أفراد الأمن يترقبون رد فعله، ابتلع ريقه وكاد لسانه ينزلق معه، نظر إلى السحاب وكأنه ينتظر مددًا من السماء، تفككت الكلمات إلى أحرف متناثرة حادة الأطراف تنغزه في حلقه لا يستطيع تجميعها، ثم أمرها:

ـ اسأليه عن «إلياس» فين الأول.

سألته.

ـ ارمي الفلوس في الصندوق وماتكتَّريش في الكلام.. دا لو عاوزة تشوفيه تاني.

ضرب «الحلبي» تابلوه السيارة بجهاز اللاسلكي، واهتزَّت ساقاه توترًا:

ـ انزلي يا مدام وحطي الفلوس في الصندوق وارجعي بسرعة.

أمرها بذلك بعدما تدبَّر الموقف، حياة شخص مرهونة بحفنة من النقود، نزلت من السيارة تتجه ناحية الصندوق، واصطكت أسنانها من الرعب، وجفَّ حلقها، شَمَّت رائحة كريهة من جوفها، رائحة الخوف، بالكاد تستطيع الوصول إلى الصندوق دون توقُّف قلبها عن النبض

تحتضن حقيبة النقود في ترقُّب من «الحلبي»، اقتربت من الصندوق بخطوات حاملي النعوش ثم قذفتها بداخله، وهرعت كجندي يبتعد عن مدى قنبلة يدوية، ثم استقرَّت

في السيارة تقبض على الصليب تتلو صلاتها وتتضرع إلى الرب.

كل العُيون شَاخِصَة تجاه الصندوق، الكل ينتظر، الكل متأهب، الكل لا يتوقع ما تخفيه الثواني المقبلة، أخرج «الحلبي» سلاحه وشدّ أجزاءه، طال انتظارهم، ثم بعد دقائق نظر ضابط إلى «الحلبي»:

ـ باشا.. هو من إمتى فيه صناديق زبالة على الدائري؟

نظر إليه الحلبي في وجوم.. وجد في سؤاله وجاهةً ومنطقًا، ثم نظر إلى الصندوق، فلاحظ أنه صندوق جديد:

ـ شكلهم هما اللي حاطّينه هنا!

لم ينتهِ من استنتاجه المتأخر حتى سمع صوت هاتف «كارولين» يُنذر بمكالمة داخل سيارتها:

ـ شكرًا يا مقدّسة على الفلوس.. أنا لسَّة ماعديتهمش لكن واثق فيكي.. آه بالحق، شكرًا يا «حلبي» باشا، معلش تعبناك معانا.. نشوفك على خير.

صمت «الحلبي»، ووضع بين شفتيه سيجارة ثم أشعلها، في ترقُّب من «هاشم» الذي عرقت مؤخرته من الأريكة الجلدية، وقد نهشه فضول جائع لم يُكمل وجبته بعدُ، لم يستطِع الصمود كثيرًا، فسأل «الحلبي»:

ـ مش فاهم معاليك! هُمَّ خدوا الفلوس ازاي؟!

نظر «الحلبي» إلى دوائر دخان سيجارته الذي يرتفع في تسلسل إلى سقف مكتبه، حتى تلاشت جميعها عدا واحدة رفرفت في الهواء، حَلَّقت فوق رأسه كالغربان، حاصرها حتى تمركزت فمه، فقذف ما تبقى في صدره من دخان في منتصفها، فاخترقها بلا مقاومة مثلما اخترقت الشنطة الفجوة أسفل صندوق القمامة.

لم يكُن «هاشم» بالذكاء الكافي حتى يستوعب ما يقصده «الحلبي» بتلك الحركة، فكرر السؤال:

ـ خدوها ازاي معالي الباشا؟

أراح سيجارته على المطفأة، ثم ارتكز بكوعيه على المكتب، فارتخى رأسه بين منكبيه وعقد أصابعه:

ـ المنطقة دي كانت فيها إصلاحات وصيانة على الدائري، استخدموا حفرة على طرف الكوبري وحطوا فوقها صندوق زبالة مفتوح من تحت.

صفع «هاشم» جبينه بقوة كما يفعلها مع مشاغبي القسم بلا رحمة، لم يستطِع إلجام ضحكه، بادر بالاعتذار لـ«الحلبي» حتى يتفادى غضبه:

ـ معلش معالي الباشا.. والله غصب عني.. دا ولا الأفلام الأجنبي.. وبعدين معالي الباشا إيه اللي حصل؟

وقف «الحلبي» ببطء متثائبًا ثم أغلق التكييف، فتح نافذة مكتبه وسمح لأشعة الشمس بأن تلتهم برودة

الجدران، نظر إلى بوابة القسم وتابع حركة أفراد الأمن الرتيبة، أمسك بيديه عمودين من حديد النافذة لم يشعر بحرارتهما، ثم اعتصرهما حتى صبغ الصدأ كفيه، وأردف:

ـ «إلياس» لقيناه شبه ميت.. رموه على الطريق الصحراوي..

ـ يعني لحقتوه يا باشا؟

التفَّ «الحلبي» وتحرك خطوتين، ثم استند بذراعه إلى المكتب:

ـ «إلياس» جاله تزيف في المخ، ودخل في غيبوبة ومات.. الموضوع كان معقّد وصعب.. الخيط الوحيد اللي كان لازم أعرفه: الواشي اللي بلّغ التشكيل بكل تفاصيل المأمورية.

غمرت أشعة الشمس «الحلبي» من الخلف وتسرب جزء منها إلى وجه «هاشم» أفقده القدرة على رؤية ملامحه جيدًا، فاستعان بكفِّه ليحجب ضوءها الشديد قائلًا:

ـ طب عرفته ازاي معاليك؟!

ـ مفيش حاجة اسمها جريمة كاملة.. ومفيش حد مايغلطش.. دي قاعدة لازم تكون مؤمن بيها.. الشطارة إنك تمسك الغلطة..

تحرك أمامه، ثم استند بمؤخرته إلى سطح المكتب وعقد ذراعيه:

ـ جبت فواتير تفصيلية للأرقام اللي استخدموها في طلب الفدية.. طبعًا كانت الأرقام دي مش متسجلة باسم حد.. لكن أكيد استخدموها في مكالمات لناس كتير.

ـ صح معاليك.. أكيد بنسبة كبيرة استخدموها في تقليب ناس تانية.

ابتسم «الحلبي»:

ـ أو ممكن ألاقي رقم الواشي في قائمة اتصالاتهم.. مش كدا ولا إيه؟!

راقت لـ«هاشم»، فأشار برأسه: «صح».

ـ قائمة المكالمات الصادرة من أرقام التشكيل العصابي كانت كتير، حددت الأرقام اللي كانت مدتها أكتر من عشر دقايق.. وكانوا رقمين.

سأله «هاشم»:

ـ اشمعنى معاليك؟!

ـ معنى إن مدة المكالمة عشر دقايق يبقى أكيد يعرفه كويس.. هو انت ممكن تتكلم عشر دقايق مع حد ماتعرفوش؟

ـ لأ طبعًا.. ولا حتى اللي أعرفه.

ثم ضحك:

ـ الغلطة اللي كنت بادوَّر عليها لقيتها.. رقم الواشي كان

واحد منهم.. كان رقم «أبو جبل».

ـ طب والرقم التاني معاليك، كان بتاع مين؟!

سكت «الحلبي» ومنحه نظرة أقنعته بعدم الاسترسال، ثم سَوَّى شاربه وفتَله في شرود، شعر «هاشم» حينها دخوله حيز الخطوط الحمراء، ظل منتظراً إجابته حتى أدار له ظهره متجهًا إلى كرسيه وتابع:

ـ دا لغز لحد دلوقتي ماحليتهوش.. خلينا في الموضوع الأساسي.

ـ ماشي معاليك.

ـ جبت إذن نيابة باستخراج شريحة بنفس رقم التشكيل العصابي، واستدرجت «أبو جبل» لمكتبي من غير ما يحس بحاجة، وقعدت أدردش معاه.. واتفقت مع واحد من الأُمَنا يكلمه وهو قاعد معايا من نفس الشريحة.. على فكرة.. كان قاعد مكانك كدا بالظبط..

تلفَّت «هاشم» يمينًا ويسارًا يتفحص موقعه من الأريكة.

ـ في الأول، سألت «أبو جبل»: تفتكر مين من أفراد الأمن ممكن يكون هو الواشي اللي سرَّب المعلومات للعصابة؟!

كان «أبو جبل» واثق الخطى في حديثه، لم يظهر على ملامحه الاضطراب أو التوتر، مسحته نظرات «الحلبي» كمجسَّات حرارية للكذب، كان ثابتًا إلى حد الصدق،

حتى أتته مكالمة من رقم التشكيل العصابي، كما خطط «الحلبي» مع أحد أفراد خدمته، نظر إلى الرقم وضغط على أيقونة الرفض، وضع الهاتف أمامه، وأكمل حديثه وكأن شيئًا لم يكن، مجسَّات «الحلبي» بدأت تستشعر بعض الترددات العشوائية، مرَّت ثوانٍ ثم جاءته مكالمة أخرى من الرقم نفسه.

ـ استنى.

قالها «الحلبي» حين همَّ برفض المكالمة للمرة الثانية، علقت يده فوق الهاتف وتصلَّب.

ـ رُدّ على التليفون يا «أبو جبل»، عمال تكنسل ليه؟!

هنا معنى الصدمة التي تُنسيك اسمك للحظات، قطعة من الثلج داخل رأس «أبو جبل» يشعر ببرودتها، سالت منها قطرات على جبينه، وجمَّدت كل أفكاره، كادت تصيبه بالصرع أو بسكتة دماغية.

أمسك الهاتف في تردُّد وحيرة، بدأ في الانهيار وتلاشى ثباته المزعوم، وقبل أن يضع الهاتف على أذنه صرخ «الحلبي»:

ـ افتح الاسبيكر يا «أبو جبل».

تعانقت أعينهما على جسر من الصمت، أضحى «أبو جبل» وحيدًا كفريسة ضاق بها متسع الدنيا، ولم يتبقَّ لها سوى أنياب وحش جائع ينتظر لحظة الانقضاض، ضغط

على زر مكبر الصوت، فلا مفرَّ من تنفيذ أمر «الحلبي».

ـ ألو.. إنت فين يا «أبو جبل»؟ باتصل بيك مش بترد ليه؟

ـ مين معايا؟!

قالها «أبو جبل» باستنكار واضح:

ـ مين معايا إيه؟! إنت لسَّة هتسأل؟! اسمع بسرعة.. «الحلبي» هَرشَك وعامل لك كمين.. شوف هتتصرف ازاي بسرعة.. سلام.

أغلق المكالمة، والتصقت عيناه بالأرض، تحوَّل إلى صنم كفر به العباد، لم يجرؤ على النظر إلى «الحلبي»، سمع صوت استدعاء الخدمة خارج الطرقة، رفع «أبو جبل» طرف عينيه ليجد إصبع «الحلبي» تضغط على زر الجرس، فُتح الباب ودخل ثلاثة من الأمناء كانوا بالانتظار.

ـ تعرف أكبر عقاب من ربنا إيه للبني آدم؟! لما يسلَّط عليه نفسه.

قالها «الحلبي» ثم انتظر مجادلته، لكنه ظل منكَّس الرأس، ولم يعُد للفأر مخرجٌ من المصيدة، وذهب عنه بريق قطعة الجبن، شيء واحد سقط سهوًا من حسابات «الحلبي»، تذكَّره حين لمح سلاح «أبو جبل»، فحاول أن يتداركه:

ـ حُطّ سلاحك قدامك على الترابيزة.

رفع «أبو جبل» رأسه وقد تبدلت ملامحه، ارتفع ضغط الدم في جسده، واحتقنت الشعيرات الدموية في عينيه، تحولتا إلى بقعتين حَمراوين مُحتقنتين، سحب سلاحه ببطء ووضعه على الطاولة في مذلة وخشوع، ودَّع معهما سلطته ونفوذه، وقبل أن تغادر أنامله المرتعشة سلاحه استسلم لشيطانه المَريد، ورفعه في وجه «الحلبي» قائلًا:

ـ أنا هاخرج من هنا.

نهض متمردًا دون الاكتراث بالعواقب؛ فالهروب آلية بقاء أساسية مُترسخة في أحماضنا النووية تدفع أجسامنا إلى الاستجابة للخطر بالقتال أو الفرار.

ـ سلاحك فيه كام رصاصة يا زعيم؟ عشرة؟ عشرين؟ تفتكر هتعرف تخرج من هنا حيّ؟! اعقل ونزِّل سلاحك.. لسَّة فيه وقت تعدِّل موقفك في القضية.

لم تُجْدِ كلماته بشيء، أشار بسلاحه تجاه الأمناء وأمرهم بالابتعاد عن الباب، لم يتحرك أحد، مما زاد الأمر تعقيدًا، صرخ فيهم:

ـ ابعدوا عن الباب.

لم يتزحزح فرد منهم، نظر حينها إلى «الحلبي»:

ـ قول لهم يبعدوا عن الباب.. أنا مش باكي على حاجة.

كانت فرصة جيدة لانقضاض أحد الأمناء على ذراعه

القابضة على السلاح ومن ثَمّ باقي الأمناء، طوّقوه، تلاحمت أجسادهم حتى اختفى «أبو جبل» بينهم. وقف «الحلبي» يتابع شجارهم في ترقب، يقال إن الكثرة تغلب الشجاعة، لكن ليس وبين قبضتك سلاح ناري، ثلاثة «جدران» يحاصرون فيضان همجية «أبو جبل»، سقط أحدهم في صمت بعد دويّ رصاصة طائشة استقرَّت في صدره، لم يتألم، غادر في هدوء وسلام، تحوَّل «أبو جبل» إلى ثور هائج زادت مقاومته مع لون الدم الطازج.

هل رأيتَ يومًا فوهة بركان ثائر على قمة جبل؟!

هذا ما حدث لرأس «أبو جبل»، حين خرجت رصاصة من سلاحه، اخترقت فكَّه السفلي، ومزقت لسانه، ثم هشَّمت عظام جمجمته، فتحت في رأسه فوهة بركان من الدماء لطخت سقف المكتب، نافورة بشرية من الدماء.

نظر «هاشم» إلى سقف المكتب، وقد نسج خياله بقايا دماء «أبو جبل» تتساقط أمام عينيه، ثم نظر إلى «الحلبي» حين قال:

ـ مش عارف حقيقي هو مات منتحر ولا رصاصة طايشة خرجت من سلاحه بسبب مقاومته لأفراد الأمن.

****

الفصل السابع

ضلفتان من الحديد الأسود إحداهما مغلقة، يعلوهما قوس من الصاج مكتوب عليه: «**نادي المعادي الرياضي واليخت**»، أسفل القوس يقف فردا أمن، يرتديان زيًا موحدًا باهتًا، قيصًا لَبَنيًّا مطرزًا بشعار النادي بحجم مفرط الكبر وبنطالًا كُحليًّا، لن تُجهد عينيك في تمييزهما عن الأعضاء، أحدهما يواري سيجارة في كفه، يُدخن في خفية عن الأنظار؛ فراتبه لا يحتمل عقوبة انتهاك واحد من شروط الأمن، كان خلف البوابة ممر عريض ممهد، تدلَّت أعلاه فروع الأشجار المتشابكة من برجولة خشبية ارتكزت إلى أعمدة عريضة من الطوب الأحمر تحيط بالممر على الجانبين.

ظهر في نهاية الممر «محمد خطَّاب» بجواره ابنه ذو السنوات التسع، يتجه للخروج من النادي، ألقى فرد الأمن السيجارة بعيدًا حين اقترب «خطَّاب» من البوابة، ثم رفع يده بجوار جبهته منحنيًا:

ـ مع ألف سلامة «خطَّاب» بيه.

أشار إليه «خطَّاب» بالرضا عن احترامه المصطنع، ثم توجَّه إلى سيارته بجوار سور النادي، وقف أمامها في تعجُّب، لاحظ أنه لا يستطيع الخروج، إحدى العربات تقف في الممنوع تعوق خروجه من الجراج، فتش بعينيه عن السائس فلم يكن في محيط المنطقة، سمع صفارته

المزعجة تدوي في فضاء المكان، هتف به حين لمحه، فجاء مهرولًا:

ـ إنت واقف هنا طرطور ولا إيه؟ إزاي سِبت العربية دي تركن كدا؟

تلاحمت مؤخرة السائس مع حقيبة السيارة في محاولة منه لتحريكها، لكنه لم يستطِع، فأردف وهو يحزق:

ـ والله يا باشا كنت باتصيّر.. معلش.

ـ طب انجز حالك وشوف فين صاحب المخروبة دي.

ـ حاضر يا باشا.. حالًا.

ركض يجول هنا وهناك؛ بحثًا عن صاحب «المخروبة»، يخشى غضب «خطَّاب»، يعلم أن رصيد صبره قد أوشك على النفاد، فإن دقيقتين من الملل كفيلتان بخروجه عن النص، فلا حول له في دفع شرّه إذا بدأ في الارتجال، ظهرت وسط الشارع حورية من البشر، تتبختر بساقين ارتكزتا بأعجوبة إلى كعب عالٍ، يتلوَّى فوقهما خصر مهيب، صرخت بالإغراء بلوزة حمراء أبرزت اللحم الدِّن، وقد شدَّت حول ساقيها بنطالًا كالمطاط يقتل عن بُعد، في قاموس التحرش اللفظي «فرس» دون لجام، زاغت عينا «خطَّاب» يتأمل كل مفاتنها، اقتربت من السيارة، استنتج السائس أنها صاحبة المخروبة، أشاح بيده منفعلًا:

ـ هي دي برضه ركنة يا مدام؟ ينفع كد...

قاطعه «خطَّاب» وأشار إليه بالصمت، فاخترقت حيزهما في رشاقة تقول:

ـ أنا آسفة جدًّا.. معلش كنت متأخرة على البنك ومالقيتش ركنة.

الأنثى هادئة الطبع ناعمة الخطى ملأت صمت «خطَّاب» ضجيجًا، فابتسم لها بعدما أعادت شحن صبره بنجاح، رمق السائس بنظرة أقنعته بالاختفاء، ثم أردف:

ـ حصل خير.. مفيش مشكلة.

قالها بهدوء متحرِّش، خلعت عدساتها الشمسية، وكشفت عن عينين ساحرتين، نظرت إلى ابنه وتبسمت:

ـ ما شاء الله! إيه الجمال دا؟!

انحنت تداعبه:

ـ الجميل اسمه إيه؟

لم يستجِب واختبأ خلف ساق والده، رفعت رأسها لـ«خطَّاب»، فقطعت شروده مع مؤخرتها، سرَّتْها نظراتُه النَّهِمة، ولغة جسده الصامتة المكشوفة لها، بُهِتَ حين رمقته، فسعل قائلًا:

ـ اسمه «أحمد».. معلش أصله عنده تأخُّر في الكلام.. وبيتكسف.

ردَّت عليه في ملقٍ وهي تعتدل:

ـ يتكسف؟! أكيد طالع لباباه.

ثم أخرجت من حقيبتها قطعة شيكولاتة وشريحة خشبية رفيعة (Wooden Stick)، ابتسم الطفل مبتهجًا عندما رمقها، فمالت تسأله:

ـ دي اسمها إيه؟!

ردَّ عليها في خجل:

ـ شوتولاتة.

تعثَّر في حرف الـكاف:

ـ لأ اسمها شيكولاتة.. تعالى قرب مني، ماتخافش.

اقترب منها طمعًا في الحصول على الحلوى، فأمرته بفتح فمه، فوضعت الشريحة الخشبية على أطراف لسانه في متابعة من «خطَّاب»، ثم ضغطت عليه ليستقر أسفل فكه:

ـ قول ورايا.. كككككككك.

ـ منعت الشريحة الخشبية لسانه من الانزلاق لأعلى، فخرجت الكاف بوضوح، كررت تدريبه على الكاف كثيرًا حتى نطق:

ـ شيكولاتة.

فمنحته الشيكولاتة مكافأة له، استقامت، ثم مدت يدها لـ«خطَّاب»:

ـ آسفة.. نسيت أعرفك بنفسي.. «مريم علام»،

أخصائية تخاطُب وتنمية مهارات.

ـ أهلًا وسهلًا يا فندم.. أنا «محمد خطَّاب».

قاطعته قبل أن يُكمل:

ـ ضابط شرطة، مش كدا؟!

صمت ثانيتين مال فيهما رأسه يمينًا:

ـ غريبة.. عرفتي منين؟!

ـ أكيد من الطبنجة اللي في جنبك.

ـ الواضح إنك ذكية.. والواضح كمان إننا محظوظين أنا و«أحمد» ابني.

ـ دا بس من ذوقك.

ـ لأ أنا باتكلم بجد.. أكيد مش هلاقي أحسن من حضرتك يعالج «أحمد».

ـ ليه؟ هو حضرتك مش متابع مع أخصائي تخاطُب؟!

ـ متابع، بس الحقيقة النتيجة ضعيفة.. ومش شاطر زيك كدا.

ـ عمومًا أنا تحت أمرك في أي وقت.

ـ عيادة حضرتك فين؟!

ـ للأسف، أنا لسَّة راجعة من أمريكا من شهرين، ولسَّة ماشية في إجراءات فتح مركز تأهيل للأطفال.. هيكون

جاهز خلال أسابيع.

ـ أسابيع! يااااه.. مدة طويلة قوي.

ـ لأ عادي ممكن تجيبه وتيجي عندي البيت.. كام حصة كدا لحد ما المركز يفتح.. أنا باعمل كدا مع كام حالة مستعجلة.

اختصرت عليه سنين ضوئية من التخطيط الإستراتيجي للوصول إلى تلك النقطة، ثم أخرجت كارتها الشخصي:

ـ دا رقمي، ممكن تكلمني بكرة نحدد أول جلسة لو حابب.. عمومًا، الجلسة بـ500 جنيه.. لكن أول جلسة «for free» علشان خاطر عيون «أحمد».. وبعدين اعتبره أقل اعتذار على ركنتي الغبية دي.

ـ ماشي، اتفقنا..

ـ خلاص بااااي.. بااااي يا «أحمد».

أدارت ظهرها وانصرفت، وقفت أمام باب سيارتها تنظر عبر الزجاج، تعلم جيدًا أن عينيه لم تتركاها لحظة، انتظرت ثواني، ثم نظرت إلى الساعة في رسغ يدها، رفعت رأسها للزجاج، وأخذت تنقره بسبابتها، ثم صرخت:

ـ «خطاااااااب».. جوّه الأوضة دي اللي هيخليك تقول الحقيقة.

توقّف الزمن بعد تلك الجملة، قالتها مرة، لكنه سمعها ألف مرة داخل عقله.. تمنى «خطّاب» لو اخترقت عيناه ذلك

الزجاج المظلم، وكشفتا عمَّا يخفيه، ولم يشغله عدا ذلك السؤال المفزع: ما الذي يمكنه ردعي خلف ذلك الجدار؟

يتساءل كيف تلاعبت به هذه المرأة، وزجَّت به بين جدران تلك الغرفة، رفض عقله أن تكون تلك هي نهاية حياته الحافلة بالنفوذ، ذهب عنه سلطانه في غمضة عين، خذله غروره ونرجسيته، ظن أن يوم الحساب مع نهاية العالم فقط، لم يتوقَّع دعوته إلى حضور حفل تكريم وحساب مؤقت، نظر في وجوه المدعوين معه في الحفل، لا شفة تفتر عن كلمة، وجوه شاحبة، مشرئبة، أنهكهم الخوف، يجمعهم شبح المصير المجهول.

ظلت واقفة أمام نافذة الغرفة لا تتحرك، نكَّست رأسها يتأرجح في تأسف ثم أردفت:

ـ صدقني، مفيش بني آدم على وجه الأرض هيستحمل اللي جوّه الأوضة دي!

التفتت إليه وحدجته بنظرة يملؤها الوعيد:

ـ قُدامك عشر دقايق تعيد فيهم حساباتك.. ارحم نفسك من العذاب اللي مستنيك.

انتهت قصة «أبو جبل»، وانتهى معها شغف «هاشم» وفضول، إلا ذلك السؤال الذي ظل يخز في عظام جمجمته: مَن صاحب الرقم الثاني؟! ولِمَ تخطى «الحلبي» إجابته؟

الفضول داء خارج عن السيطرة، كلما زادت أعراضه نتج عنه طفلٌ لحوح، نُقر باب المكتب ثم دلف إلى الغرفة أحد أفراد الخدمة يحمل ملفًا سميكًا، كان تقرير المعمل الجنائي قد وصل للتو، وضعه على المكتب، ثم رفع يده بالتحية لـ«الحلبي» وانصرف، نهض «هاشم» تاركًا بصمته العريضة على الأريكة:

ـ أعمل لمعاليك قهوة تاني؟!

ـ لأ كفاية قهوة يا زعيم.. أنا كدا قلبي هيقف.. هات أي عصير.

ـ حاضر.

انصرف «هاشم»، وفتح «الحلبي» الملف، فوجد بداخله كيسًا بلاستيكيًا كبيرًا محكم الغلق، كان بداخله كيس أصغر يحوي ورقة مطوية ملطخة بالدماء، ألقى الكيس على المكتب، وبدأ في قراءة التقرير:

وزارة العدل ـ قطاع الطب الشرعي ـ دار التشريح...

دُوِّن أسفلها خمسة عشر رقمًا تمثل رقم التقرير، تجاهل «الحلبي» كل التفاصيل، قفز فوق السطور مهرولًا حتى وصل إلى رأي الطب الشرعي، كان يبحث عن الخلاصة، فتوقف عند:

مما سبق وتقدم، وبعد الاطلاع على مذكرة النيابة وإجراء الكشف الطبي الظاهري والصفة التشريحية للجثة (رأس)

المتوفى/ مجهول الهوية 65، الذي لم يُتعرَّف عليه بعدُ، فإننا نقرر الآتي:

• إجراء الصفة التشريحية، وبفحص الرأس تبين أنه توجد آثار لهجوم حيوان مفترس نهش بعض اللحم أسفل الخد الأيمن، وجزءًا من الأذن والذقن.

• تعرض المتوفى لنزيف حاد قبل الذبح على غرار إصابات حيوية في جسده أدَّت إلى هبوط حاد في الدورة الدموية وسكتة قلبية، توقف على أثرها القلب عن ضخ الدم وإمداد الدماغ بالأكسجين، مما كشف وأكد أن فصل الرأس حدث بعد الوفاة بساعات.

• حُشر كيس بلاستيكي في فم الجثة بعد الوفاة يحتوي على ورقة أُرفِقت بالتقرير، وتعذَّر وجود أي بصمات يمكن تتبعها.

وانتفضت يده تجاه الكيس البلاستيكي، شقَّه بلهفة، ثم أخرج الورقة المرفقة مع التقرير، فتحها فتحيرت عيناه، لا توجد بها سوى ثلاثة أحرف متفرقة وثلاثة أرقام يفصل بينها خط مائل (ن د و/ 135)، لم يكن لغزًا أو شفرة معقدة ليتدارك أنه رقم سيارة، لكن اللغز الحقيقي كان ذلك السؤال الذي طرح نفسه: ما الذي يريده ذلك القاتل؟ هل يريد الإشارة إلى صاحب السيارة؟ وما الذي منعه من كتابة اسمه مباشرة؟

عاد «هاشم» ومعه كوب من عصير الليمون «المشبَّر»،

وضعه على المكتب دون أن يشعر به «الحلبي»، كان شاردًا يحاول إيجاد أي تفسير منطقي لذلك اللغز.

ـ «حلبي» باشا.. فيه حاجة ولا إيه؟

نظر إليه مقطّب الحاجبين:

ـ لا مفيش يا «هاشم».

ـ مفيش إيه معاليك؟ دا انت حتى ماحسيتش إني دخلت المكتب!

أشار إليه بالجلوس، فلم يملك الأكسجين الكافي لفضوله، ثم أجرى اتصالًا سريعًا بقسم المساعدات الفنية، طلب الاستعلام عن تفاصيل رقم السيارة، (ن د و/ 135)، مرت دقائق تناثرت فيها أفكاره، وتعددت الاحتمالات، فنظر إلى «هاشم» وسأله:

ـ ركز معايا يا زعيم.. لو انت قاتل، تخفي معالم الجريمة، ولّا تسيب وراك دليل ممكن يكون خيط نجيبك بيه؟

ـ أكيد معاليك هاخفي معالم الجريمة.

أشار إليه «الحلبي» بسبابته ورفع حاجبيه قائلًا:

ـ دا التصرف الطبيعي لأي مجرم.. مش كدا؟ لكن فيه احتمال تاني..

ـ زي إيه معاليك؟

ـ إنه يكون عاوز يلفت نظرنا لجريمة أكبر.. أو عاوز

يوقّع حد.

قالها وشرب عصير الليمون دفعة واحدة، ثم بملامح مقشعرَّة:

ـ هي الداخلية ماصرفتش التموين ولا إيه؟! ابقى بحبح إيدك شوية في السكر يا زعيم.

جاءه اتصال من قسم الدعم الفني يفيد بمعلومات رقم السيارة، فأخذ يدونها في ورقة أمامه، نوع السيارة «BMW X6»، تابعة لوحدة تراخيص ضباط وأسر الشرطة، مملوكة للسيدة «تقى مهدي الجويلي»، القاطنة في 14 شارع وهيب دوس متفرع من شارع 9 المعادي، زوجة المقدم «محمد خطَّاب»، رئيس مباحث قصر النيل.

هنا تجمَّد القلم وسقط مغشيًّا عليه فوق الورق، نهض «الحلبي» يستند بقبضته إلى المكتب مشدوهًا ينظر إلى ما دوَّنه بين ذراعيه، طقطق فقرات عنقه، ثم نظر إلى سقف المكتب يُفكِّر بعمق، مسح وجهه بكفيه في محاولة لتصفية ذهنه من التشتت، ثم أخذ قرارًا بعد عصف ذهني دامَ دقائق، فاتصل بالجهات المعنية بسرعة ضبط وإحضار السيارة المذكورة.

لم يأخذ الأمر أكثر من ساعة حتى مرَّت السيارة بكمين ثابت على حدود منطقة المعادي، وحُجِزت، وبالتفتيش وُجِدَت في حقيبة السيارة أوراق وطبَنجة «Zeg_Zawar» ألماني.

بمعاينة «الحلبي» للأحراز المرفقة من السيارة وجد من ضمن الأوراق تصاريح دفن مختومة من وزارة الصحة دون أسماء، اتصل حينها سريعًا بمدير المباحث، وطلب منه مقابلته على وجه السرعة لخطورة الموقف، نصف ساعة وكان «الحلبي» يجلس في مكتبه:

ـ خير يا «حلبي»؟ فيه إيه؟

ـ خير إن شاء الله معاليك.. بس في الأول أحب أقول لحضرتك إن الموضوع محتاج شوية وقت لشرحه.

ـ اتفضل، أنا سامعك.. خد واقتك، وبراحتك خالص.

ـ أكيد حضرتك فاكر الواقعة بتاعة «أبو جبل»!

ـ طبعًا.. هي دي حاجة تتنسي؟ دا انت تحمد ربنا إنك لسَّة في الخدمة من بعدها.. خصوصًا إنك أسأت التصرف في التعامل مع الموقف. بس ما علينا.. فيه جديد في الموضوع ولا إيه؟

ـ بص معاليك.. الأرقام اللي كنت باتابعها وراصد تحركاتها كانوا رقمين.. واحد فيهم كان بتاع «أبو جبل»، والتاني رقم مجهول مش متسجل على سيستم الشركة.. أنا كنت راصد الخط دا ومتابعه، رغم إنه كان على طول مقفول.. لكن من وقت للتاني كان الخط بيتفتح فترات بسيطة ويرجع يتقفل تاني.. وزي ما حضرتك فاهم، أول لما الخط بيشتغل بيتحمّل على أقرب شبكة ليه بنقدر من خلالها نحدد أماكن وجوده، لكن بيبقى صعب الوصول

ليه.. لكن في يوم الخط فتح واتحمل على «سيكتور» شبكة جوه «جنينة مول».. طبعًا الحظ ما أسعفناش للوصول في الوقت المناسب.. لكن لما راجعت كاميرات المول في التوقيت دا.. شُفت حاجة لفتت نظري.

ـ شُفت إيه يا «حلبي»؟

ـ شوفت المقدم «محمد خطَّاب».

ـ مين؟! تقصد «محمد خطَّاب» رئيس مباحث «قصر النيل»؟

ـ أيوه يا فندم.

ـ مش فاهم.. طب إيه المشكلة؟!

ـ في الأول ماكانش فيه مشكلة، والموضوع كان عادي.. لحد ما في يوم جالي تقرير بأماكن تواجد الخط في مناطق متفرقة.. أول لما جت عيني على كلمة «قصر النيل»، توارد لذهني لما شُفت «خطَّاب» في كاميرات جنينة مول مش عارف ليه، وبعدين لقيت إن الخط بيفتح في المعادي.. و«خطَّاب» ساكن في المعادي...

قاطعه مدير المباحث:

ـ استنى استنى.. إنت تقصد إيه؟! إنت عاوز تقول إن «خطَّاب» معاه خط ليه علاقة بالتشكيل العصابي اللي كان خاطف الجواهرجي؟

ـ دا كان مجرد شك جوايا، وماكنتش متأكد.. عشان

كدا صرفت نظر عن الفكرة، واعتبرتها فكرة مجنونة.

ـ أمال إيه طيب؟

ـ حضرتك أكيد متابع برضه وعارف القضية اللي باحقق فيها اليومين دول بتاعة الراس المقطوعة اللي لقيناها في منطقة القلعة!

ـ أيوه متابع.

ـ المهم علشان ماطولش على حضرتك كان فيه رسالة غريبة مع الراس، كانت عبارة عن رقم عربية..

ثم أخرج ورقة ووضعها أمامه كان مدونًا بها كل تفاصيل السيارة وبياناتها، ثم أكمل:

ـ السؤال الأول: تفتكر سعادتك ليه القاتل حط رقم عربية؟ لو عاوز يشاور على صاحبها، مش كان كتب اسمه على طول؟

ـ صح، معاك حق.. وجهة نظر تُحترم.. بس تفتكر ليه؟ عندك إجابة؟

ـ بص كدا حضرتك على نوع العربية.

نظر سريعًا ثم أردف:

ـ مكتوب نوع السيارة «BMW X6».

ـ تعرف حضرتك العربية دي تمنها كام؟

خربش ذقنه بلطف، ثم نظر إلى «الحلبي»:

ـ تقريبًا باتنين مليون وكسور على ما أتذكر.

ـ هو دا اللي القاتل عاوز يشاور عليه.. معلش معاليك أنا لو حوّشت مرتبي من ساعة ما اتخرجت لحد ما هالبس البيجامة وأقعد في البيت مش هاجيب نُص تمنها.

ـ أنا لسَّة مش فاهم حاجة.

ـ العربية بتاعة زوجة المقدم «محمد خطَّاب»، وللعلم دي زوجته التانية، وببعض التحريات من مصادري الموثوق منها، عرفت إنه هو اللي شاريها وكاتبها باسمها.. مش كدا وبس، دا شاري شقة بضعف تمن العربية، وكاتبها برضه باسمها.

ـ تقصد تقول إن «خطَّاب» متورط في الكسب غير المشروع؟

ـ لا يا فندم، مش كسب بس.. دا فيه مصيبة أكبر.

ـ إيه تاني؟!

وضع حينها أوراق تصريح الدفن المختومة من وزارة الصحة دون أسماء أمامه:

ـ بُص كدا يا فندم.. دي تصاريح دفن مختومة على الأبيض، لقيناها في شنطة العربية بتاعة مراته.. ودي طبنجة مرخصة.. تعرف معاليك لما كشفنا على الطبنجة اتضح إنها بتاعة مين؟

ـ مين؟

ـ الطبنجة مرخصة باسم «إلياس غبريال فهمي» المجني عليه صاحب محلات الصاغة اللي كان مخطوف.

تجمَّعت المعلومات أمامه، واصطفت كالبنيان المرصوص تشير إلى تورط «خطَّاب» في شبهة جنائية، وإدارة تشكيل عصابي، نظر إلى التصاريح يتفقدها واحدًا تلو الآخر في تعجُّب، ثم أردف:

ـ العربية باسمها.. وهي اللي كانت سايقاها.. بالورق مراته هي اللي هتلبس..

ثم زمَّ شفتيه وسأله:

ـ هي فين مراته دلوقتي؟

ـ في مكتبي.. لكن الصراحة مانعها من التواصل معاه من ساعة ما دخلت الكمين.. لحد مانشوف معاليك هتتصرف ازاي.

رفع مدير المباحث هاتفه وأمر مساعديه بالاتصال بـ«خطَّاب» وأمره بالمجيء على وجه السرعة.

ـ طب معاليك شايف إيه؟ أقعد أستنى، ولا أمشي ومعاليك هتتصرف؟

ـ تمشي تروح فين؟ أمال مين اللي هيواجه «خطَّاب» بكل التفاصيل دي؟ مفيش حد فوق القانون يا «حلبي».. وماتعملش حساب حاجة.. اللي بيغلط لازم ياخد فوق

دماغه حتی لو کان مین.

****

الفصل الثامن

استند «منير» بذراعيه إلى الطاولة، ثم أخذ يُدلِّك جبينه، بعدما فاجأته «شمس» بما لا يتوقع وحاصرته بالدليل القاطع، فلا مفر له غير قول الحقيقة، نظر إليها لثوانٍ، ثم سألها:

ـ وانتي متوقعة إيه يا «شمس»؟!

ـ والله ماعرفش.. أنا مش بانجِّم...

قاطعها «منير»:

ـ بصي يا «شمس»، إحنا بقى لنا أسبوع وأكتر أنا ووالدك وأخوكي «عظيمة» بندور على أي معلومة عن «أنس».

ـ عارفة ومستغربة.

ـ ممكن تصبري وتسمعيني من غير مقاطعة للآخر زي ما سمعتك؟

سكتت تتوارى خلف تنهيدة أعلنت بها أن صبرها لن يحتمل.

ـ إنتي متخيلة إن سر اختفاء «أنس» أخوكي مع واحد ميت؟! يعني، من الآخر، علشان نعرف إيه اللي حصل لازم نِحيي «سيد الونش» ونسأله.. ورغم كدا وصلنا لمعلومات مهمة جدًّا الفترة اللي فاتت.

ـ هو أنا مش عارفة كل دا علاقته إيه بإن «أنس» أخويا يكلم بابا من تليفونك يا «منير»!

غضب من قلة صبرها ومقاطعة حديثه:

ـ أنا مش فاهم، إنتي لو صبرتي شوية هتخسري إيه؟

سكتت مرغمة حتى يكمل حديثه.

ـ «سيد الونش» قبل ما يموت كان بيحاول يتواصل مع رئيس مباحث اسمه «محمد خطَّاب».. والغريب إن دا نفس الشخص اللي كان بيحقق معايا في قضيته.. والواضح إنه شخص شمال.

ـ وانت عرفت منين المعلومة دي؟

ـ مش مهم.. المهم لازم تعرفي إن عيلة «سيد الونش» مش ساكتين.. وبيدوروا على اللي قتله.

ـ طب بابا عارف الكلام دا؟!

ـ أبوكي وأخوكي متابعين كل حاجة لحظة بلحظة.. ومن ساعتها و«عظيمة» متابع «محمد خطَّاب» وبيرصد كل تحركاته.. المهم، دكتور «زين» كان خايف على الست والدتك من كتر التفكير والحزن.. فحب يخف عليها الضغط شوية.. اتصل بيَّ واتفق معايا إني أكلمه في التوقيت دا على أساس إني «أنس» علشان يجدد الأمل فيها وماتروحش منكم.. عرفتي ليه «أنس» اتكلم من تليفوني؟!

ثم أزاح هاتفه ببطء تجاهها، وتابع:

ـ ممكن تكلمي والدك من تليفوني ونتأكدي.

حملقت إلى وجهه لثوانٍ هزت فيها رأسها في أسف، ولاذت بصمت مبين، ثم بكت بمرارة، نظر «منير» إلى خطَّي الماسكارا المنسابين على وجنتيها، وشعر بالندم على صراحته التي اغتالت روح الأمل فيها، إن «الأمل» و«الألم» كلمتان متباينتان في المعنى، رغم تشابههما اللفظي، لكن ـ في الحقيقة ـ الأمل وطول الانتظار هما الألم بعينه.

سطع جمالها مغسولًا بماء أنوثتها كالنقاء بعد المطر، سيطرت عليه رغبة ملحة تدفعه إلى مسح خديها بيده، لكنه قاومها، وقع أسيرًا بلا معركة، وتحرَّك دبيب النشوة في قلبه، نسي معاناتها، ولم يبقَ له إلا هذه الصورة العذبة لوجهها الملائكي.

خفضت رأسها في حِداد امرأة ثكلى وقالت:

ـ قلبي بيقولّي إن «أنس» مش بخير.

ردَّ عليها بنبرة هادئة:

ـ تفاءلي خير يا «شمس».

****

تزاحمت العديد من التفاصيل الثريَّة داخل أروقة مبنى مديرية الأمن، ما بين طوابير من المتهمين ينتظرون العرض والترحيل، والخطوات السريعة الأقرب إلى الهرولة من محامين وعمال بوفيه وأمناء شرطة وعساكر، لكل منهم مبتغاه في هذا العالم المظلم القائم على كلمتين فقط، الكل يدور في أفلاكهما.. البراءة أو الإدانة، وبينهما جسر من الأوراق والأدلة الميري المؤكدة، دون أي اكتراث بالدموع والتوسلات والقَسَم بالأيمان الغليظة التي تتردد في كل لحظة، لكن عيني «خطَّاب» لم تنشغلا بأيٍّ من تلك الأمور وهو يسير بخطوات سريعة متوجهًا نحو مكتب مدير المباحث، وفي ذهنه زحام آخر من التساؤلات والاحتمالات التي لم يتوقف عقله عن طرحها منذ أن تلقَّى ذلك الاتصال المفاجئ، وقف أمام المكتب يُهندم ملابسه، نظر إلى حذائه ليتأكد أنه ما زال محافظًا على بريقه ولمعته، ثم أخذ نفسًا عميقًا قبل النقر على الباب والقفز بين جدرانه، دلف إلى المكتب في هدوء، ألقى التحية، ثم سقطت عيناه على «الحلبي» يجلس داخل المكتب.

ثلاث خطوات كانت بمنزلة ثلاث سنوات تفصله عن المقعد الذي أشار إليه مدير المباحث وأمره بالجلوس عليه، حَجَبَ «خطَّاب» يسراه عن حيز الرؤية عندما لاحظ أن كليهما لمح في معصمه ساعته «الرولكس» الباهظة.. ثم، قبل أن يستقر في مجلسه، سأله المدير:

ـ إنت متجوز على مراتك يا «خطَّاب»؟

كان السؤال خارج منهج الاحتمالات التي لم يتوقف عقله عن طرحها في طريقه، خطرت ابتسامة ضعيفة تهتزُّ على شفتيه، مرَّت دون أن تُلحظ، ثم أدار وجهه لمدير المباحث قائلًا:

ـ هُمَّ ظباط الداخلية ممنوعين من تعدُّد الزوجات ولا إيه؟ دا حتى الشرع محلل أربعة معاليك!

ثم سعل في كفٍّ مقبوضة قبل أن يُكمل:

ـ أيوه يا فندم، متجوز على مراتي.

قال جملته الأخيرة وهو ينظر بين عيني «الحلبي»، ثم التفت برأسه إلى المدير يسأله:

ـ مسموح لي سعادتك أسأل؟

ـ أكيد يا «خطَّاب».. خد راحتك.

ـ إشمعنى معاليك السؤال دا؟!

ـ علشان مراتك محجوزة في مكتب «الحلبي».

لم يستطِع «خطَّاب» زرد ريقه، صمت لثوانٍ ينظر إليهما في دهشة، هزَّ رأسه في صمت، وانحنى بهمجية يأخذ كوب مياه كان أمامه، فأسقط بغير قصد بروازًا من على المكتب، التقطه «الحلبي» بين يديه، فاستقرأت عيناه ما بداخله، كانت كلمة لـ«محمود درويش» تقول:

«مِن يَحيَا على حِرْمَانِ غَيرِه مِن الضَّوْءِ يُغرق نَفْسَه فِي عَتَمَة ظِلِّه».

ثم استقاما في مواجهة بعضهما البعض، فسأله بعدما تجرَّع الماء:

ـ خير يا «حلبي»؟ مراتي بتعمل إيه في مكتبك؟!

صمت «الحلبي» يحدجه بنظرة شفقة، ضجر «خطَّاب» وارتفعت نبرته قليلًا يسأل المدير:

ـ ممكن أعرف معاليك مراتي بتعمل إيه في مكتبه؟!

أومأ مدير المباحث برأسه لـ«الحلبي» للبدء في الشرح والمواجهة، فبدأ يقول:

ـ «خطَّاب»، إحنا زُملَا في نفس المهنة، وأكيد فاهم إن طبيعة شغلنا هي تحقيق العدل وتطبيق القانون على الكبير قبل الصغير.

عقد «خطَّاب» ذراعيه، وأراح ظهره على الكرسي، ثم قال بتحدٍّ:

ـ ادخل في الموضوع على طول يا «حلبي»، وسيبك من المقدمات.

نظرة خاطفة من «الحلبي» إلى مدير المباحث، ثم أكمل:

ـ ماشي يا زعيم.. أكيد سمعت عن واقعة خطف «إلياس» الجواهرجي، مش كدا؟

ـ مفيش حد في المديرية كلها ماسمعش عنها.. ولا حتى عن «أبو جبل» والأمين اللي ماتوا في مكتبك.

زمَّ «الحلبي» شفتيه وأغمض عينيه لحظة، ثم هزَّ رأسه وأردف:

ـ تمام.. باختصار، بعد موت «أبو جبل» كان فيه خط تليفون تابع للتشكيل العصابي تم رصده.. وبالمتابعة اتضح إنه بيتوافق مع وجودك في نفس الأماكن اللي بتكون فيها...

أشار بكفه إلى «خطَّاب» بالصمت والانتظار حين همَّ بمقاطعته:

ـ أنا لسَّة معاليك ماخلصتش كلامي.. يا ريت تسمعني للآخر.

تقهقر «خطَّاب» للخلف في وجوم، حاول الحفاظ على كبريائه رغم أن كل شيء بداخله يرتجف، كل الأقنعة تساقطت عدا قناع الثبات.

ـ تفسَّر بإيه يا «خطَّاب» باشا لما نلاقي رسالة مع جثة تطلع رقم عربية المدام؟! وبتفتيش العربية نلاقي تصاريح دفن على الأبيض وطبنجة مرخصة باسم «إلياس غبريال فهمي».. تفتكر دي كلها صدف؟

لم يُجِبه، زاغت عيناه لسطح المكتب، فلمح سلاح «إلياس»، ثم أدار عينيه تجاه «الحلبي» يسأله:

ـ خلّصت يا باشا؟!

قالها بامتعاض وكراهية، هزَّ «الحلبي» رأسه بنعم، نظر بعدها «خطَّاب» إلى مدير المباحث قائلًا:

ـ معالي الباشا.. هتصدقني لو قلتلك إني مش فاهم حاجة من اللي قالها «حلبي» باشا؟

ـ ليه يا «خطَّاب»؟ هو كان بيتكلم عبري؟!

ـ لأ معاليك.. بس الكلام كدا مش منطقي.

ـ طب قُل لنا انت المنطقي يبقى إيه!

ـ يعني إيه معاليك خط مشبوه بدون اسم يتصادف وجوده في نفس الأماكن اللي أنا موجود فيها؟...

قاطعه «الحلبي» قائلًا:

ـ على فكرة أنا ماقُلتش إن الخط بدون اسم.. عرفت المعلومة دي منين «خطَّاب» باشا؟

ابتسم «خطَّاب» باستنكار لـ«الحلبي»:

ـ مش من الذكاء إنك تسأل رئيس مباحث سؤال ساذج زي دا يا «حلبي»!

هاجمه مدير المباحث قائلًا:

ـ تفتكر يا «خطَّاب»، مين فيكم اللي عنده سُلطة يقدر يطلّع تصاريح دفن على الأبيض؟ إنت ولا المدام؟!

ابتلع ريقه وهو يقول:

ـ أعتبر دا يا فندم اتهام مباشر ليَّ؟

غضب مدير المباحث، فارتفع صوته:

ـ «خطاااااب».. أنا مش باكلم عسكري خدمة.. ولا باكلم صف ظابط.. أنا باتكلم مع رئيس مباحث قصر النيل زي ما قلت انت من شوية.. يعني ردودك لازم تكون على نفس مستوى رُتبتك.

ـ ماعرفش عنهم حاجة معاليك.. وأكيد حد داسسهم ليها في العربية.

ـ عمومًا، الأمور هتمشي في إجراءاتها الرسمية، والتحقيقات هتبين كل حاجة.. إحنا كنا مأجلين التحقيق لحد ما نقعد معاك.. إنت برضه واحد مننا..

ثم سكت قليلًا، وضرب بكفّه مرتين على سطح مكتبه وهو يقول:

ـ سيب سلاحك هنا.. واعمل حسابك بكرة عندك مقابلة مع مفتش الداخلية.. ومن دلوقتي تعتبر نفسك موقوف عن العمل لحين إنهاء التحقيق والبت في الأمر نهائيًا.

أصابته الجملة الأخيرة باضطراب، وقف بعدها في ذهول، كشيخ ضربته أعراض خَرَف الشيخوخة، لا يذكر أين يقع السلاح في جسده، أخذ يتحسس بدنه المرتعش بعشوائية

كمتسوِّل في كمين سُئِلَ عن تحقيق شخصيته، حاول الهرب من نظرات «الحلبي»، وصل أخيرًا إلى مكان الطبنجة، كان يحتفظ بها فوق مؤخرته، لم يكن من السهل عليه تنفيذ الأمر أمامهما، سحبها ببطء، ثم جعل فوَّهتها تمر أمام وجه «الحلبي» للحظة توقف فيها الزمن، ثم تلاقت أعينهما لجزء من الثانية كان كفيلًا بإلقاء «خطَّاب» قصائد من وعيد، وضع سلاحه على المكتب بجوار طبنجة «إلياس»، ظل قابضًا عليه بكفه، ثم رفع رأسه المنسدل على صدره لمدير المباحث في نظرة خضوع قائلًا:

ـ أستأذن معاليك عاوز أشوف مراتي.

نظر بعدها الآخران بعضهما إلى بعض، ثم هز المدير رأسه بالموافقة، اتصل «الحلبي» حينها بـ«هاشم» وأخبره بقدوم «خطَّاب»، خرج بعدها من المديرية متجهًا إلى قسم الخليفة، وعلى ملامحه أعتى أمارات الغضب، تكوَّرت قبضته بغلٍّ ولَكَرَ بها كل الحوائط التي مرَّ بها، وبرزت عظمتا وجنتيه من كَزّ فكيه الذي كاد يطحن أسنانه وضروسه، لم تستشعر قدماه المسافة التي قطعها للوصول إلى سيارته، حتى جلس أمام عجلة قيادتها، وانهال بكفَّيْه عليها بكل ما فيه من غضب مكبوت، ارتسمت أمامه صورة «الحلبي»، فتضاعفت لكماته وتضاعف معها صوت آلة التنبيه، فأجبرته نظرات المارة على التوقُّف، حينها أطلق زفرة حارة خرجت كالحمم وتطاير معها لعاب من شدقيه، ثم قبض على عجلة القيادة، وغمغم من بين أسنانه بحروف

مستعرة:

ـ عليَّ الحرام من ديني لاندّمك ع اليوم اللي اتولدت فيه يا «حلبي».. وحيااااة أمك لاعرّفك مين هو «خطّاب».

«احْذَر دَائمًا مِن صَفْعَةٍ وَجّهْتَهَا لغريمِكَ وَلم يستطِع رَدَّهَا، فَقَد تَتَحَوَّلُ يومًا إلى رصاصةٍ مُستقرُّها صَدْرُك».

تحرك بالسيارة بسرعة طائشة، وصل إلى قسم الخليفة في دقائق حُذفت من الزمن، دخل مهرولًا بخطوات همجيةً حتى استقر أمام مكتب «الحلبي»، كان «هاشم» يجلس لتأمين المكتب ينتظر قدومه، نهض معطيًا له التحية العسكرية حين رآه، أمره بفتح المكتب فأطاعه، دلف متحفزًا، فوجد زوجته جالسةً على أحد المقاعد في حالة انهيار، هرولت إليه فاستوقفها بإشارة من كفّه حتى أوْصَدَ «هاشم» الباب، ثم عَلَى حِينِ غِرَّةٍ هوى على وجهها بصفعة كالصاعقة:

ـ أنا مش قلت لك العربية ماتخرجش من الجراج؟!

سقطت أمامه على المقعد تغطي وجهها بكفيها في حالة ذهول، انحنى وقبض على ذراعيها حتى كادت أصابعه تخترق لحمها البَضّ، لتقف أمامه منكمشةً من الخوف والذعر، قبل أن تقبض أصابعُه على شعرها ويضمها إليه، ثم همس لها بصوت خفيض:

ـ مش قادرة تنسي إنك كنتِ في يوم رقاصة، مش كدا؟! حاولت أعمل منك هانم، لكن للأسف

فشلت.. من دلوقتي مش عاوزك تقولي غير كلمة واحدة: «ماعرفش». فاهمة؟ أي حد يسألك عن الحاجات اللي كانت في العربية هتقولي إيه؟

نظرت إليه في رعب ثم قالت:

ـ والله ما قلت غير ماعرفش.

تتلخص مُعَانَاةُ بَعْض النّسَاء فِي اخْتِيَارَات أجبرتْهن عَلَيْهَا الخُطُوبُ، زَوْجَةٌ ثَانِيَةٌ لَا يَحِقُّ لَهَا الظُّهور، سجينٌ لكهلٍ ثرِي ابتَاع شَبَابَهَا، خَادمَة فِرَاش بِعَقْد عُرْفِيّ، أو رَحِم بَدِيلة لِزَوْجَة عَاقِر.. كُلُّهَا علاقات عَطبة نَتِيجَةَ مَسار إِجْبارِيّ اضْمَحَلَّتْ فِيه إِرَادَتُهن.. إنَّ لَحْظَةَ الرضوخ والاسْتِسْلَام الْحَقِيقِيَّةَ لِلْمُسْتَضْعَفات مِنَ النّسَاءِ لَيْسَتْ عِنْدَ اسْتِشْعَار نِهَايَتِهِنَّ فِي تَجَارِبَ فَانِيَة، بَلْ عِنْدَ بُزُوغ فَجْرٍ لوعد جَدِيد، غَرِيزَةُ بَقَاء تدفعهن جَمِيعًا كالقطعان إلى تفادي سُقُوط يكتشفن - متأخرًا ـ أن ما تبعه كان أشدَّ عمقًا ووقعًا.

أفلتها بعدما بصم على ذراعيها بمخالبه العشرة، ثم أدار ظهره لها واستند بكفِّه إلى سطح المكتب يفكر برأس مائل، فسألته بنبرة متلجلجة:

ـ طب هي الحاجة اللي كانت في العربية دي بتاعة مين؟!

رمقها بطرف عينيه كالذئاب دون الالتفات إليها، وأجاب:

ـ ماعرفش.

ـ إزاي ماتعرفش؟ الطبنجة دي مش كانت معاك؟! أنا شُفتها كذا مرة.

التفت إليها، ثم ضمها إلى صدره حتى استقرَّت بين ذراعيه، وأخذ يمسح بكفه على شعرها ببطء، ثم قبض على خصلاتها فجأة:

ـ لو سمعتِك بتقولي كدا تاني هيكون آخر يوم في عمرك، إنتي فاهمة؟!

بدأ يضغط على عنقها من الخلف تدريجيًّا:

ـ إنتي ماتعرفيش حاجة.

زاد الضغط حتى كادت عظام أنفها تُسحق في صدره:

ـ ولا تعرفي الحاجة دي بتاعة مين.

حاولت دفعه لتخفيف الضغط والالتحام به.

ـ مش هاعيد الكلام تاني.

باعدت وجهها عن صدره وهي تنظر إليه في رعب، وقالت بخفوت:

ـ حاضر.

تركها وقد جفف الذعرُ دموعَها، تيبَّست مكانها كشجرة متحجِّرة من العصر الكربوني، أصابتها الصدمة

بتشنجات دفين، بحظت مقلتاها ترى أمامها كائنًا لا تعرفه، سألت نفسها ألف سؤال وسؤالًا، ظلَّت الأسئلة تعيث كالجراد فسادًا في رأسها حتى انقضى وقت لم تشعر بمروره، وقفت وحيدة عارية على أطراف جزيرة جرداء تقاذفتها أمواج الحياة إليها دون تمهيد أو سابق إنذار، اختفت الشمس من سمائها ولم يتبقَّ لها سوى ذلك الصقيع الذي يخر الروح قبل العظام، ولطيم الأمواج الذي يضرب ساقيها الهزيلتين، مكسورة، ضعيفة، مُستهانة، لا حيلة لها، عادت إلى المسرح تنهش لحمها أعين السكارى، افتقدت دفئًا يحتويها كانت تنتظره بين ذراعيه.

أخذت من حقيبتها قرص «باروكسيتين» المهدئ للأعصاب ربما تستعيد به ثباتها، وتغادر تلك الجزيرة الموحشة، لعلَّه يوقف ذلك الصرير الذي يضرب أذنيها، ابتلعته دون قطرة ماء، نزل يخبط في حلقها الخَشن دون رحمة، لم تشعر بمرارته حين بدأ بالذوبان.

ذهب «خطَّاب» تجاه الباب وترك خلفه مركَبًا تبدد حطامه وسط الأمواج المتلاطمة، نظرت إليه في يأس حتى لامست يده مقبض الباب، فسألته:

ـ هو أنا مش هاروَّح معاك؟!

قالتها وقد تمرَّدت قطرتان من الدموع تلاصقتا برموشها، التفت إليها بملامح هادئة، ثم هز رأسه بالنفي، وأردف:

ـ هتخلَّصي إجراءات التحقيق النهارده، وبكرة هتتعرضي

على النيابة والمحامي هيخرَّجك بضمان محل إقامتك.. ماتقلقيش، مش هتنزلي الحجز.. أنا موصي عليكي.. هتباتي هنا لحد الصبح. آه بالحق.. نسيت أقولك حاجة مهمة.. العربية باسمك.. وانتي اللي كنتي راكباها.. من مصلحتك تقولي ماعرفش.. فاهمة؟! سلام يا «تقى».

****

مرت دقيقتان من العشر الممنوحة لـ«خطَّاب»، رحلت فيهما الملثمة ومعها الحقيبة، تركته بعدما ألقت به في غيابة جُب ينتظر مصيرًا مجهولًا كما فعلها إخوة «يوسف»، لكن لا أمل له في مرور قافلة العزيز، ظل يحملق إلى «جمال منتصر»، أطال النظر إليه بعينين ثابتتين لا تشوبهما اختلاجة، لم يستطِع حينها «منير» استقراء أي شيء من ملامحه، ثم طفحت على وجهه ابتسامة ليس لها محل من الإعراب، ثم باغته يسأل:

ـ هي اللي جابتك هنا، مش كدا؟

بدا له بسؤاله كالمجانين، فتجاهله «جمال منتصر» وأبى أن يجيبه، طفق يهرب بحدقتيه من حيِّز جنونه، لحظات مسح فيها بعينيه وجوه الجميع، ثم ارتد ببصره لـ«خطَّاب» ليجده على الوتيرة نفسها منتظرًا إجابته، اعترض حينها بكفيه قائلًا:

ـ مش فاهم هتستفاد إيه يا «خطَّاب»!

ـ عاوز أعرف.

ـ أيوه يا سيدي هي.. ارتحت؟!

ـ إزاي؟!

ـ يووووه.. ما خلاص يا «خطَّاب»، هو دا وقته؟!

ـ إزاااااي؟!

كررها «خطَّاب» بإصرار، فلم يجد الآخر مفرًّا من

إرضاء فضوله، فقال:

ـ دَخلِت عليَّ على إنها صحفية عاوزة تعمل تقرير صحفي عن المستشفى والخدمات الطبية اللي بنقدمها.. وبعدين تطورت العلاقة بيـــ..

قاطعه «خطَّاب»:

ـ خلاص، أنا عرفت الباقي.. مش محتاج تكمِّل.

ثم نظر إلى «منير» قائلًا:

ـ وانت جيت ازاي؟

استرق «منير» نظرة سريعة إلى «كريم» قبل أن يقول:

ـ أنا كنت بادوَّر عليها عشان أعرف أي معلومة ممكن تفيدني في سر اختفاء شاب اسمه «أنس»، وماعرفتش أوصل لها.

ثم صمت، فسأله «خطَّاب»:

ـ وبعدين؟

عقد «منير» ذراعيه على الطاولة، وأسهب النظر إليه قائلًا:

ـ هي كلِّمتني على تليفوني، وقالت إنها عاوزة تقابلني.

ـ هي كانت تعرفك؟

ـ لأ.

ـ أمال وصلت لك ازاي؟

ـ كُنت سايب رقمي مع شخص ساكن في نفس الشارع بتاعها.

ـ وبعدين؟

ـ رُحت علشان أقابلها في الشيخ زايد.. وحصل اللي حصل.

ـ كانت لوحدها؟

ـ في الأول كانت لوحدها لحد ما اكتشفت إني معمول لي كمين في حتة مقطوعة.

التفت «خطَّاب» بعدها إلى «فارس» وسأله:

ـ وانت؟!

ـ آخر حاجة فاكرها وأنا في جراج العمارة رايح أركب عربيتي.

لم ينتظر «كريم» دوره، بل سبق نظرة «خطَّاب» إليه قائلًا:

ـ كانت معايا في الجيم واتعرفت عليها.. والباقي أكيد انت فاهمه وعارفه.

هز «خطَّاب» رأسه لهم جميعًا في تحية لسذاجتهم، أغلبهم كان فريسة سهلة لإشباع غرائزه، انقضى الوقت سريعًا ولم يتبقَّ له سوى بضع دقائق تفصله عما ينتظره خلف

جدار تلك الغرفة، تخللت أصابعه فروة رأسه يحاول ترتيب أفكاره، استبدَّت به تيارات الحيرة وتقاذفته موجات التشتت، نظر إلى الغرفة المظلمة في توتر فشل في إخفائه عنهم، نفد الوقت ودخلت الملثمة في تأهُّب تنظر إليه، ثم سألته:

ـ هاااا يا «خطَّاب»، مش ناوي تتكلم؟!

انحنى منكسرًا لا حيلة له، فما أصعب الاختيار بين أمرين أحلاهما مُرٌّ، رفع رأسه لها ثم أردف:

ـ هاتكلم.

وجم الجميع وتعلقت أبصارهم به، ثم هزَّت الملثمة رأسها قائلةً:

ـ ممتاز.

أدار بصره في الأعين المصوبة نحوه:

ـ بس ليَّ شرط.

ـ هنا مفيش شروط يا «خطَّاب».

تابع كأنما لم يسمعها:

ـ لو يهمك فعلًا اللي هاقوله، يبقى لازم نكون على انفراد.. لما هاتكلم بيني وبينك هتعرفي إني عندي حق.

صمتت لحظة تطلعت فيها إلى ملامحه، والتقى مسار أعينهما لثوانٍ ثم سألت:

ـ هو دا شرطك؟!

ـ شُفتي الموضوع بسيط ازاي؟!

واسترق نظرة من الوجوه ليرى وقع الأمر عليهم، رمقته ثم غادرت الغرفة، وتركت خلفها ضجيجًا من التساؤلات الخافتة، لم يهتم «خطَّاب» بالرد عليها، ثم صمتوا جميعًا حين دخلت يتبعها رجل آخر ملثم متشح بالسواد كهيئة الدواعش، ألقى في قلوبهم الرعب، كان يحمل سلاحًا في يسراه، ذهبت خلف «خطَّاب» ووقفت، ثم أمسكت بذراعيه وبدأت في تقييدهما من خلف كرسيه، التفَّ برأسه قدر استطاعته قائلًا في استنكار:

ـ مش مستاهلة تكتيفة تاني.

أشار الآخر بسلاحه في وجهه قائلًا:

ـ إنت مش طلبت تكون على انفراد؟! ماسمعش صوتك لحد ما تخرج من هنا.

في اللحظات التي شغلها تقييده كان الجمع مترقبًا ومتحيرًا فيما سوف يستجدّ عليهم بعد الانفراد به، استيقظ «كريم» من صمته قائلًا:

ـ إنتم واخدينه على فين؟ إيه المشكلة إنه يتكلم قُدامنا؟!

ذهب إليه الملثم، ثم وضع فوَّهة السلاح عند أذنه اليسرى، ومال يهمس له في الأخرى قائلًا:

ـ ماتقلقش، إحنا عارفين بنعمل إيه! ولو سمعت صوتك

تاني هافتح لك ودانك على بعض.. فاهم؟!

هزَّ «كريم» رأسه ببطء مستسلمًا، ثم نظر إلى الملثمة حين أخرجت ضِمادَة سوداء، وبدأت في لفِّها حول رأسه بإحكام، أصبح بعدها «خطَّاب» مُكبَّل اليدين مَعْصُوب العَيْنَيْنِ كما وُلِدَ في تلك الغرفة من قبل.

أحاط به الظلام من جديد، ينتظر في تأهُّب لحظة الإقلاع والخروج من محيط الغرفة، مال كرسيه للخلف حين قبض على أطرافه الملثم، وبدأ بسحبه، تحرك بضع زَحفات استبط فيها معاناة حامله من صوت أنفاسه المختنقة وأزيز صدره، بدأ «خطَّاب» في رسم مسار لحركته في خياله المظلم، يحاول رسم خريطة للمكان في ذاكرته، ما بدا تكيوط رفيعة بيضاء تُحفَر وسط ظلامه، شرع الخط بالالتواء في خياله، علم حينها أنه بصدد المرور خلف مقعد «منير» وعن يساره زجاج تلك الغرفة المشؤومة، ثم استقام الخط قيد مترين، وقفت الحركة للحظة، ثم سمع أطيط باب يُفتح، لَضم الخيوط في خياله عندما بدأت الحركة من جديد واستنتج أنه دخل غرفة مجاورة، سمع هسيس أبواق سيارات يوحي بوجود طريق عن بُعد، ظل يتحرك في خط مستقيم على أرض متعرجة، ثم بدأ بالالتفاف حول شيء ضرب كتفه، لكن لم يستطِع تحديده، شرعت الخيوط في التداخل والتعقيد، ثم وقفت الحركة للحظة فُتح فيها باب آخر دلف إليه، سار في خط مستقيم لثوانٍ، ودار مرات عدة حتى تحوَّلت الخريطة إلى متاهة لا جدوى لها، فشل

في رسمها، لكنه تأكد أن المكان أوسع مما توقع، ثم توقفت الحركة وارتكز كرسيه على أطرافه الأربعة فاعتدل.

ثوانٍ من الصمت يشوبها بعض الهمس، ثم هَمَّ الملثم بمخاطبته قائلًا:

ـ اتكلم، إحنا سامعينك.

رفع عينيه المعصوبتين ببطء تجاه الصوت يبحث عن بداية:

ـ الأول، لازم تعرفوا إن إحنا في مركب واحدة.. أنا كمان بادوَّر على اللي قتل «سيد الونش».. دا من صميم شغلي.

ـ اعتبرنا مصدقينك.. كمِّل.

ـ «سيد الونش» كلمني فعلًا قبل ما يموت، وطلب إنه يقابلني.. بس ماكانش ينفع أقول الكلام دا قُدامهم.. إنتم كدا بتبوَّظوا مجهود شهور من البحث والتحريات.. أنا متأكد زيكم إن اللي قتله واحد من اللي موجودين جوَّه...

قاطعه قائلًا:

ـ كان عاوزك في إيه «الونش»؟

ـ بلَّغني بعمليات مشبوهة بتتم داخل مستشفى «جمال منتصر».

ـ عمليات زي إيه؟

ـ تجارة أعضاء.

ـ تمام.. كمِّل.

ـ كنت شغال في البحث والتحريات لحد خبر قتله.

ـ تفتكر مين ليه مصلحة في قتله؟!

ـ «جمال منتصر».. مليون في المية هو اللي حرَّض على قتله.

ـ معاك دليل على كلامك؟

صمت ونكّس رأسه، ثم أردف:

ـ حاول يساومني بشكل غير مباشر.. بس دا مش دليل قاطع.. خروجي من هنا في مصلحتكم.. ماتورطوش نفسكم أكتر من كدا فـ..

قاطعه الملثم قائلًا:

ـ فيه حاجة تاني عاوز تقولها؟

ـ لأ.

أرخى الصمت حبائله فوق رأسه، ينتظر إعلان النتيجة، شعر بأنامل تتلاعب خلف رأسه وعقدة العُصَابة تَحل ببطء، وجد في ذلك مؤشرًا لبدء التفاوض، سقطت عنه الضِّمادة السوداء التي اعتصرت عينيه، كانت رؤيته مشوشة، تصحبها زغللة، رَمشَ بجفنيه كثيرًا حتى يصحح بصره، بدأت الصورة في الوضوح تدريجيًّا، حتى اصطدم

بـ«جمال منتصر» يجلس أمامه يستقبله بملامح لَزجة لزوجة البيض النيء، ينظر إليه في غضب واحتقار.

تطلع حينها سريعًا إلى الأرضية فوجد آثارًا محفورة لزحف كرسيه خارج الغرفة ذهابًا وإيابًا، ثم دورانه أكثر من مرة حولهم؛ لم يغادر «خطَّاب» الغرفة، لقد جرى التلاعب به أمام الجميع، صرخ:

ـ أغبيا.. أغبيا.

الفصل التاسع

في دُجى الليل الدامس وهيمنة الموت الأصغر على الخلائق، نفض «محمد الحلبي» الغطاء من فوقه بفزع، بينما تسارعت دقات قلبه كقرع الطبول في ذروة لحن مجنون.

جلس على حافة فراشه يتصبَّب عرقًا، ندَّت منه التفاتة نحو زوجته «هاجر» الغارقة إلى جواره في سباتٍ عميق، قام بتكاسل يتحسس الطريق على هدى الحائط وضلفة الباب، مرورًا بأطراف السفرة الممتدة في الصالة حتى بلغ المطبخ، تبددت العتمة بضوء خافت انبعث من الثلاجة حين فتحها، شرب حتى الارتواء، وقع بصره على قلم الأنسولين الخاص بابنته «تاليا»، خفق قلبه وتصلَّب مكانه ينظر في أسى.. ابنته الوحيدة، فلذة كبده ذات الأعوام التسعة تعاني داء السكري، الجانب المظلم في حياته وجرح قلبه الذي لا يندمل أبدًا.

حَنَّ لرؤيتها فأخذته قدماه حتى أعتاب غرفتها، أخذ يتلمَّس الجدار حتى ضغط بهدوء على زر إنارة الطرقة، قبل أن يفتح باب غرفتها ببطء متحاشيًا إيقاظها، سقط ضوء متسرب على وجهها الملائكي، استرق خطوات ناعمة فوق وبر السجاد حتى وصل عند رأسها، انحنى ليزيح بأنامله خصلاتها المنسدلة على وجهها، ثم طبع قبلة حانية فوق جبينها، فاح من مسامِّها شذا البراءة، فاشتمَّ رائحة النقاء التي تعطر جلود الأطفال؛ دفعته عاطفة الأبوة إلى أن

يضاعف قبلاته بسخاء.

دون وعي منه، زحفت ذراعاه لتحيطا بجسدها النحيل، رفعها قليلًا حتى استقر رأسُها في صدره، أخذ يمسح شعرها بخده وهو مغمض العينين، شعر بدفء غريب وهي بين أحضانه، موطنه الصغير وملاذه من هموم الدنيا، تساءل من أي مزيج خُلقت لتتسرب إلى روحه كل تلك النشوة؟! هل توجد جنة غير التي بين ضلوعه؟! وكيف استباح السكري حرمة جسدها الطاهر؟! لعنه ألف مرة قبل أن يُحجَب عنه ضوء الطرقة، فتح عينيه فوجد زوجته تقف على الباب تراقبه، أشار إليها بالصمت، ثم أراحها على الفراش، وغادر ساحبًا زوجته التي همست بصوت خفيض:

ـ البنت فيها حاجة ولا إيه؟!

لم يجبها وأومأ إليها بالصبر حتى الابتعاد عن حدود غرفتها، وما إن دلفا إلى حجرتهما وجلس على السرير وقفت أمامه تسأله:

ـ ما لك يا «محمد»؟ إيه اللي مصحيك في الوقت دا؟!

ـ مفيش.

قالها منحني الرأس.

ـ هو إيه اللي مفيش؟!

جلست بجواره تداعب الحسنة التي تُرصِّع خده الأيمن،

وتابعت:

ـ ما لك يا حبيبي؟! معقول هتخبي عليَّ أنا؟!

نظر إليها بعينين انجلى فيهما التردد، ثم أجاب:

ـ كابوس يا «هاجر».

ثم أدار وجهه ينظر إلى ما بين قدميه، أخذ يتأمل نقوش السجادة المتداخلة حتى ارتسم أمام عينيه صليب جحظت له عيناه، تساءل في نفسه: هل هذا ما يسمى تأثير الباريدوليا (PAREIDOLIA)؟! هل كان عقله ينتظر أي محفز عشوائي لتخيُّل ذلك الصليب بالرغم من عدمه؟! لم يستطِع تجاهله، ظل محملقًا إليه في صمت، لم يكن محفزًا بصريًّا فقط، لقد تناهى إلى أذنه صوت مرعب نابع من عقله الباطن، وكأنه لم يستيقظ من كابوسه بعدُ، كان صوت امرأة تنتحب نحيبًا مدويًا، رآها في منامه تجلس على الأرض محنيةً أسفل صليب خشبي ضخم، كان المكان مظلمًا إلا من إضاءة مسرحية تفي بالغرض، اتشحت بالسواد وعلى جانبيها طفلان حليقا الرأس، يرتديان ملابس كهنوتية بيضاء لا تتجانس مع نقابها، كانا يبكيان معها بالوجع ذاته، كلما اقترب منهم تعاظم الصوت في أذنيه، صرخ فيهم صرخات أبت مفارقة حنجرته، ثم سمع خرير ماء ثقيل سرعان ما اكتشف أنه صوت دماء تنهمر بغزارة على الصليب، خطفه المنظر، لأول وهلة ظنَّ أنها دماء المسيح، ثم غاب صوت النحيب مع ارتفاع دقات

أجراس كئاسية.. كان دويُّ الأجراس لا يُحتمل، كانت تُقرع فوق رأسه بجنون، سدَّ أذنيه بكفيه حتى لا يُصاب بالصمم، اختلس النظر إلى المرأة والطفلين وقد تلاشت أجسادهم لرذاذ متطاير بفعل ذبذبات الجرس حتى ذهبوا إلى العدم! ثم هدوء وصمت ثقيل، ثم فَشَا في المكان صوت مُبهم، كان صوت طقطقة أغصان بالية وسط نيران غاضبة، تحرَّى مصدره حتى سقطت عيناه على قدمَي المصلوب، وأدرك أن الصوت نابع من فركه لأنامل قدميه المتيبسة، رفع عينيه ببطء يتفحص جسده الدامي وجروحه المتقاطعة حتى وصل عند رأسه المسدل على صدره المتوَّج بالشوك، لم يكن المسيح كما ظن، إنما كان «إلياس»، ظل يتأمله في شفقة، لم ينوِ الاقتراب منه، لكنه فعلها دون إرادته، ترنَّح على الصليب برأسه قبل أن يرفع جفنيه ويحدجه بملامح غاضبة، ثم صرخ فيه بصوت أجشّ:

ـ إنت السبب!

ثم رفع رأسه حتى التصق بخشب الصليب، كان مشدوهًا، مشرئبًّا، جاحظ العينين، ناظرًا في فزع إلى الفراغ المظلم اللامتناهي، ثم ارتعشت شفتاه تبوحان في خوف بكلمة تردد صداها في عقل «الحلبي»: أنقذني. تأكد بعدها أن شيئًا ما يكمن خلفه، التفت بجسده ببطء ينظر وسط الظلام، رأى صورة باهتة لجبل ضخم تتوَّج قمته، جبل مُعتم من طين أسود لامع، هذا ما خُيل إليه، ثم بدأ الجبل في الانهيار.. تبددت ضخامته وأخذ يتمدد

كالزئبق استعدادًا لخروجه من حيز الظلام، ضاقت عينا «الحلبي» يحاول تفسيره، ثم هجم فجأة فيضان يكتسح المكان، أمواج مندفعة من الأفاعي والثعابين السوداء مختلفة الأحجام، الكبير فيها يبتلع الصغير، القوي يعتصر الضعيف، اهتزّت الأرض من تحته، وأوشك التسونامي أن يضربه، أغمض عينيه ينتظر لحظة الصدام كي يستيقظ من كابوسه.

«دائمًا يحدث أن نستيقظ قبل النهاية».

لم يقع الصدام كما توقَّع، فتح عينيه ليجد الأمواج قد انفلقت على جانبين يقف في منتصفهما، انشقَّت دون عصا موسى، فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ. مشهد مهيب، ضفتان شاهقتان لنهر من الأفاعي التي تحاصره مع الصليب، خارت قواه فجثا على ركبتيه ينتظر مصير فرعون، شعر بزحف إحدى الأفاعي تعتلي ظهره حتى التفَّت حول رقبته، طوَّقته في تلاحم اعتصر عظمه، وصمّ فيحها أُذنيه، فأطلق لصراخه العنان.

ـ «محمد»!

قالتها «هاجر» فأخرجته من غياهب ذاكرته القصيرة التي اقتحمت واقعه، وأعادت عرض الكابوس أمام عينيه من جديد كلمع البرق.

نظر إليها في شرود، ولا يزال انقباض قلبه وفرار الكلمات من على لسانه سيِّدَي الموقف.

اصطبغ يومُه بالكآبة، وأخذ يتقلَّب على مراقد الأرق، انفرد بسجائره في شرفة غرفته لمدة ساعتين، تابع فيهما استحواذ جنود النهار على مخيمات الليل.. ساعتان كأنهما عامان من تأنيب الضمير والتساؤلات السوداوية إثر الكابوس، قرر بعدهما الذهاب إلى مكتبه باكرًا عن موعده، محاولًا دفع ساعات اليوم المتصلبة للأمام.

جلس بين أحضان مكتبه يطالع بعض ملفات القضايا، وبدأ في تدوين الملاحظات، وجمع الأدلة وتحليلها، مع كتابة بعض التقارير اللازمة، حتى انفكَّت عقدة الساعات، وتدفق الدم في عقاربها، فأسهمت في تخفيف يومه، حتى دخل عليه «هاشم» قائلًا:

ـ صباح الخير معالي الباشا.. بيقولوا حضرتك هنا من بدري!

نظر إليه «الحلبي» للحظة ثم ضحك، كان على وشك السخرية منه وإخباره بالشبه بينه وبين تلك الأفعى التي التفَّت حول رقبته، ولا سيَّما فضوله الأشد قسوة من فحيحها، لكنه أسرَّها في نفسه ولم يُبدِها له، ليجيبه وهو يرتب الأوراق:

ـ صباح النور يا «هاشم».

لملم بعدها الأوراق في ملف واحد، ثم لوَّح بها قائلًا:

ـ الورق دا هيروح المديرية.. وعاوز أشرب قهوة.. وللخلف دُر.

أوقف نزيف الفضول المحتمل، فكَنف «هاشم» الأوراق تحت إبطه في سُكات، ثم منحه التحية العسكرية، وشرع في الانصراف، وعند أعتاب الباب هتف عليه «الحلبي» قائلًا:

ـ عارف النهارده إيه يا زعيم؟

التفت إليه مبتسمًا، ثم أردف:

ـ الأربع، معاد النادي بتاع ست الكل «تاليا».. أنا ممكن أنسى أي حاجة إلا المعاد دا معاليك.. بالحق يا باشا صحيح، حضرتك جيت بدري ليه؟

هز «الحلبي» رأسه يضحك، ثم نهره قائلًا:

ـ أبوس إيدك ارحمني وركِّز معايا.. ماتنساش تاخد مفتاح العربية.. واوعى تتأخر زي المرة اللي فاتت!

ـ أوامر معاليك.

ثم انصرف..

مرَّت دقائق من اللاشيء، مجرد بضع رشفات من القهوة التي جاءت كالعادة «صايصة»، ثم أتته مكالمة من «مفتش مباحث غرب»؛ ليخبره بأنه عُثِر على جثة دون رأس في صحراء أكتوبر، ومن المؤكد أنها متعلقة بقضية الرأس التي يحقق فيها، أنهى المكالمة وتنهد متأففًا يفكر..

دماء، جثث، كوابيس.. ضغوط تنهش أعصابه بلا

توقف، وطفلة لا يسعفه الوقت ليستشعر معها بلذة الأبوة إلا فيما ندر.. وزوجة لم تنعم يومًا معه بالاستقرار العائلي، عن أي نفوذ أو سُلطة كان يبحث أبوه في ذلك الجحيم؟! ابن عَاق يخرج عن طوع أبيه والصعيد بكامله أرحم ألف مرة من ذلك المرار، لكن عَجَلة الزمن لا تعود أبدًا إلى الوراء.

في ردهة القسم قذف لـ«هاشم» مفتاح سيارته، وشدد عليه عدم التأخير على موعد النادي، ثم انتقل بمعاونة فريق البحث إلى مسرح الجريمة.

كانت الجثة ممددة ومغطاة يحيطها بعض أفراد الأمن، تفوح منها رائحة التعفُّن على مسيرة شهر، كُمت الأفواه والأنوف، وتجعدت الوجوه مشمئزة حين رُفِعَ عنها الغطاء للمعاينة، جلس «الحلبي» على أطراف أنامله يتأمل القتيل بوجه ممتعض، الجزء المواجه لتيار الهواء من الجثة كان مصدًّا للرمال فتكومت هرميًّا، غطت نصفها، لم يكن يومها الأول في الصحراء، من أول وهلة تأكد «الحلبي» أنه جثمان الرأس المفصول، كالذي يضع قطعتين من البازل بعضهما بجوار بعض لتكتمل الصورة.

****

بينما كان «الحلبي» مشغولًا بمعاينة مسرح الجريمة، كان «هاشم» قد وصل أمام النادي؛ ليأخذ «تاليا» ابنته، احتضن الرصيف بالسيارة أمام البوابة وانتظر، تبقى له بضعة أنفاس من سيجارته فترجَّل يكملها خارجها، لم يدْرِ

لِمَ كان رجل الأمن على بوابة النادي يحملق إليه بدهشة واستعجاب، غير أنه لم يهتم سوى بأنفاس السيجارة غير عابئ بنظراته.

مرَّت عشر دقائق من الانتظار ولم تخرج ابنة «الحلبي» كعادة خروجها في التوقيت نفسه، فالتقط هاتفه المحمول واتصل بها، لتجيبه جملة رتيبة تفيد بأن الهاتف المطلوب غير متاح حاليًا!

كرر الاتصال ثلاث مرات، ثم توجَّه إلى رجل الأمن وسأل:

ـ هو تمرين السباحة النهارده اتأخر ولا إيه؟!

ترجم رجل الأمن نظراته المبهمة، وأجاب عن السؤال بسؤال:

ـ تمرين سباحة إيه اللي اتأخر؟! هو انت مش كنت هنا من شوية وخدت البنت ومشيت؟!

تلفَّت «هاشم» يمينًا ويسارًا، ثم نهره قائلًا:

ـ إنت شارب حاجة ولَّا إيه؟! أنا كنت هنا من شوية؟!

ـ أيوه، من ربع ساعة جيت بنفس العربية والبنت ركبت معاك زي كل مرة!

ارتفعت نبرة «هاشم» في الحديث صائحًا:

ـ بنت مين؟ وعربية إيه؟ اظبط كلامك لو بتهرج، لنروح كلنا في داهية!

تدخَّل فرد أمن آخر ووضع يده على كتف «هاشم» قائلًا:

ـ اهدا بس يا باشا.. نفس العربية جت ووقفت قدام البوابة من شوية والبنت خرجت قدامنا وركبتها.

أطاح «هاشم» يد رجل الأمن بقسوة، وصرخ فيه:

ـ هو أي عربية نفس اللون البنت تركبها؟! أنا ماجيتش ولا أعرف حاجة عن اللي بتحكوا فيه دا.. شكله يوم اسود على دماغكم.

ثم طلب رقم «الحلبي»، وقال بنبرة أصاب ترددها اضْطِرابه:

ـ أيوه يا باشا.. فيه حاجة غريبة حصلت لازم نلحق نتصرف فيها!

****

الاتزان النفسي، الثبات الانفعالي، ضبط النفس.. كلها مصطلحات هوت في بئر غائرة، فتحت فاها لتبتلع أهم ما يميز «الحلبي» في أثناء تفريغه كاميرات المراقبة بحضور مدير النادي و«هاشم» وأفراد الأمن.. شعر بألف طعنة في كل موضع بجسده وهو يشاهد ابنته المريضة تسير ببراءة نحو سيارة حملت اللون والتفاصيل نفسها أمام بوابة النادي، شعر بأن شريانًا في قلبه قد انقطع وهو يشاهدها تفتح بابها، وتدلف إلى داخلها قبل أن تنطلق بها بسرعة.. حاول تقريب الكادر لعله يتبين ملامح السائق دون جدوى، فأفرغ كل شحنته العصبية صائحًا:

ـ يعني إيه عربية تقف قدام النادي وتسيبوا البنت تركبها بالسهولة دي؟!

أجابه أحد أفراد الأمن بصوت مرتعش:

ـ زي ما سيادتك شايف كدا، العربية نفس اللون والشكل، ودا اللي يحصل كل مرة.

ثم أشار فرد الأمن إلى «هاشم» متسائلًا:

ـ يا «هاشم» انت مش كل مرة بتيجي تقف بالعربية قصاد البوابة والبنت بتكون واقفة وبتركب لوحدها؟!

أجابه «هاشم» بعصبية:

ـ بس بابقى أنا اللي راكبها، والبنت عارفاني.

قال فرد الأمن:

ـ البنت خرجت في معادها ووقفت 5 دقايق، وأول ما جت العربية ركبت.

التفت «الحلبي» نحو «هاشم» وجلده بعينيه وهو يسأله:

ـ هو أنا مش قايلك 100 مرة ما تتأخرش ع البت؟!

ازدرد «هاشم» ريقه بصعوبة وأجاب:

ـ سيادتك أنا ماتأخرتش.. كل الحكاية ماكملتش عشر دقايق، فردة الكاوتش كانت نايمة قدام القسم، فغيَّرتها وجيت على طول.

ارتطمت الكلمات بحاسته الأمنية، ورسم السيناريوهات في ذهنه لثوانٍ، ثم تطلَّع إلى كادر يحمل ما صوَّرته كاميرا أخرى، وأشار إلى الشاشة قائلًا:

ـ زوّم لي على نِمَر العربية.

اتسعت عيناه وتسارعت ضربات قلبه وهو يرى لافتة مزورة لأرقام سيارته نفسها على اللوحة المعدنية، ليُحدِّث نفسه بصوت سمعه كل من حوله:

ـ بنتي يا ولاد الكلب.. إلا بنتي!

وساد الصمت للحظات حارت فيها الوجوه، قبل أن يقطع صمت الواقفين رنين هاتف «الحلبي» الذي نظر إلى الشاشة ووجد اسم زوجته، فأخرس الاتصال بمسحة على أيقونة الرفض، وهو لا يعرف ماذا يقول..

تجدد الاتصال مرة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة.. ليظهر اسم الزوجة على هاتف «هاشم»، أجاب بارتباك، لتنفجر فيه بصوت خرج عاليًا:

ـ إنت ما بتردش ليه يا «هاشم»؟! ماجبتش «تاليا» لحد دلوقتي ليه؟!

فمد يده المرتعشة بالهاتف، وسلَّمه لـ«الحلبي» في صمت.

****

جلس «منير» و«كريم» في صمت أمام التلفاز، لا يشغل أحدَهما ما يُعرَض، غير أن وجوههما البائسة كانت تتغير وتصطبغ بتغيُّر ألوان الشاشة، صامتين كأنهما تمثالان قُدَّا من حجر، ينتظر كل منهما أن يبدأ الآخر بالحديث.

مرَّت دقائق، ثم اقتحم صوت مذيع النشرة الإخبارية عزلتهما قائلًا:

«العثور على جثة رجل مفصولة الرأس بصحراء أكتوبر..

انتقلت على الفور قوة أمنية إلى محل البلاغ، تحت إشراف اللواء محمد فوزي بكري، مدير مباحث الجيزة، والمقدم محمد الحلبي، رئيس مباحث قسم الخليفة، وقد تبيَّن أن الجثة لرجل مجهول الهوية، ولا توجد بحوزته أي أوراق ثبوتية، وجرى التحفظ على الجثة تحت تصرف النيابة العامة. هذا وقد صرح السيد اللواء محمد فوزي بتكثيف الجهود حول هذه الواقعة من أجل كشف ملابساتها

ومعرفة الأسباب الحقيقية خلف الجريمة».

أخذ «منير» ريموت التلفاز، ثم خفض صوته حتى عمَّ الصمت المكان، ثم نظر تجاه «كريم» الذي ما زالت عيناه عالقتين بالشاشة، ثم سأله:

ـ إنت رميت الجثة في أكتوبر؟!

لم يُحرِّك ساكنًا، وظل على وضعيته في حالة من التبلُّد، فكرَّر «منير» سؤاله، فالتفت إليه ببطء يقول:

ـ هتفرق معاك كتير؟!

ـ أيوه هتفرق معايا.. مادفنتوش ليه زي ما اتفقنا؟

ـ برضه هارجع واسألك: هتفرق معاك في إيه دفنته ولا رميته؟!

صرخ «منير» قائلًا:

ـ مش عاوز حبل المشنقة يلف حوالين رقبتي يا جدع!

أخذ «كريم» الريموت من بين يديه المتشنجتين، ثم أغلق التلفاز، والتفَّ بجسده على الأريكة، ثم نظر إلى «منير» قائلًا:

ـ ممكن تهدا؟! هو مش انت صاحب فكرة رمي الراس علشان نشاور للداخلية على «خطَّاب»؟!

ـ دلوقتي بقيت أنا صاحب الفكرة؟! إنت بتعاقبني إني كنت باحاول أحل المصيبة اللي كنا فيها؟

ـ يا عم ولا باعاقبك ولا حاجة.. إنت بس اللي أعصابك خفيفة.. تفتكر هتفرق إيه؟

ـ هتفرق إنهم هيعرفوا دا مين من بصماته أو أي نيلة.

ـ طب ما يعرفوا يا «منير»، وإيه المشكلة؟!

ـ يووووووه يا «كريم»، إنت قلبك ميت يا جدع! أنا ماشوفتش كدا في حياتي.. سلام. أنا ماشي.

****

الفصل العاشر

كانت نظرات «جمال منتصر» تصفعه بازدراء، ظل يُحدِّق إلى «خطَّاب» في غلٍّ واحتقار على وضاعته، وما نَسبه إليه في حديثه، لم تكُن نظراته فقط، بل كل الأعين كانت تنهش «خطَّاب» من كل صوب واتجاه، أجبروه على الانتكاس منحنيًا. لم يعد قادرًا على النظر في وجوههم، ثم استشعر «جمال» فوهة السلاح فوق رأسه، وسمع الجميع صوت شد أجزاء السلاح، فاشرأبّوا ينظرون، بمن فيهم «خطَّاب»، كان الملثم قد اتخذ فوق رأسه وضعية الإعدام بالرصاص، صرخ «جمال» حينها قائلًا:

ـ إنتم هتصدقوه ولا إيه؟ دا كذاب.. عاوز أي كبش فدا علشان يخرج من هنا.

ضحكت في تهكمٍ وقالت بنبراتٍ تنمُّ عن التشفِّي:

ـ إيه؟ خايف من الموت؟! ماتخافش يا «جيمي»، إحنا عارفين إنه بيكذب، بس دا مش معناه إنك ملاك.

ثم أزاحت يد الملثم من فوق رأسه ببطء، وبدأت بالدوران حولهم وهي تقول:

ـ ودي كانت آخر فرصة ليك يا «خطَّاب» علشان ترحم نفسك من العذاب اللي مستنيك.

ثم أشارت بيدها إلى الغرفة المظلمة، فاتجهت كل الأعين صوبها. وقفت خلف «فارس» ثم أكملت:

ـ دلوقتي جه معاد الغدا.. إنتم ضيوفنا.. وإكرام الضيف واجب.

نظر الجميع إلى الأطباق البلاستيكية التي لم يدركوا مغزاها من البداية، فانتشر الهلع والفزع بينهم، أخذت الهواجس تساورهم، ماذا يخططون؟! ثم وضعت كفيها على كتف «فارس» قائلةً:

ـ أقدِّم لكم الشيف «فارس»، هو اللي هيحضَّر وجبة الغدا النهارده.

زادت حدة التوتر بينهم حتى وصلت إلى ذروتها، ضاقت عينا «فارس» بعدما سمع ما قالت، غير أنه ينتظر مثل الجميع حتى تكمل حديثها للنهاية ليتبينوا نياتها، فأكملت بعدها وهي تنظر إلى «خطَّاب»:

ـ من بدري وانت عمَّال تسأل وعامل فيها «شارلوك هولمز»: ليه «فارس» إيده مش مربوطة؟

سكتت ثم توجهت بحماس ناحية الغرفة المظلمة ودلفت إليها، نظروا جميعًا إلى النافذة الزجاجية حين أضيئت الغرفة من الداخل، كانت ستارة معدنية تحجب أعينهم عن رؤية أي شيء، بدأت في رفعها ببطء حتى انكشفت معالمها، كانت غرفة عمليات مجهزة بشكل بدائي يتوسطها سرير مرتفع يرقد فوقه شخص نائم في سبات عميق، لم يحظَ معهم بأجواء الحفل، وقفت بعدها أمام النافذة تُلوِّح لـ«خطاب» بيدها، ثم دارت حول السرير حتى وصلت

عند رأس الشخص المستلقي عليه، رفعت الملاءة التي تغطي وجهه، لتجحظ عينا «خطّاب» حين وجد أنه فلذة كبده «أحمد».

«Cafe Pro's _ Nile Lounge».. مطعم مأكولات غربية على النيل..

انتصفت الساعة الثانية، المنطقة المواجهة للنيل مباشرة من المطعم.. هناك، كان يجلس «خطّاب» يتأمل الضفة الأخرى من النهر، بدا كل شيء جديدًا في نظره، الشمس هي الشمس لكن بضوء سخيف، النيل راكد كمصرف عفن تطفو على سطحه جيَف الحيوانات النافقة، ونسيم الهواء الرطب أصبح عطنًا، حتى الأشجار التي لم تتزحزح من منبتها لعشرات السنين بدت كأشباح عملاقة تطارده، كل تفاصيل الحياة استحالت حلاوتها إلى بشاعة، وظهر وجه قبيح للعالم بعد وقفه عن الخدمة، يشعر بالغربة بسبب تركه بيئته العسكرية التي أصبحت جزءًا من حياته مدة طويلة.

وعلى المقعد المقابل، كانت فتاة النادي الحسناء تجلس أمامه، تتطلع إلى ملامحه الحانقة بتفحُّص، ثم كسرت حاجز الصمت قائلةً:

_ ما لك؟ تايه ليه؟

نظر إليها وافتعل ابتسامة فاشلة، ثم أردف:

_ مفيش حاجة يا «مريم»، شوية مشاكل في الشغل.

ثم أشار إلى نادل المطعم:

ـ هات لي قهوة سادة مغلية.

خلعت نظارتها الشمسية وابتسمت:

ـ هو أنا أعرفك من فترة قريبة صحيح، بس حفظتك.. إنت فيه حاجة كبيرة شاغلاك!

ـ صدقيني مشاكل عادية بتحصل كل يوم بحكم شغلي.. سِيبك من الحوارات دي وطمنيني على «أحمد».. شايفاه بيتحسّن؟

ـ إنت شايف إيه؟

ـ والله شايف تحسُّن واضح.. بس حابب أطمّن منك.

ـ اطمّن.. كلها كام شهر وهيبقى أحسن من أي طفل في سنّه.

أراح جسده إلى الخلف وشرد في أرجاء المكان، ينظر إلى زبائن المطعم وكأنهم خيالات بلا أرواح، حتى لاحظ أحدًا يسير باتجاهه مهرولًا، وعلى الجانب الآخر أخرجت الحسناء مرآة وإصبع روج مررتها على شفتيها، لم تكن تنظر في المرآة التي رفعتها أمام وجهها، كانت تراقبه في أثناء شروده، فلاحظت تغيُّر ملامحه وتعلُّق عينيه بشيء خلفها، انعطفت بالمرآة رويدًا كي تكشف عمَّا يشغله خلفها، رأت شخصًا يندفع نحوهما بخطوات سريعة.

كان «الحلبي» وقد حُفر بين حاجبيه «111»، قبض على أحد المقاعد في الممر وجرجره خلفه بهمجية، لم يُبالِ بصرير احتكاك المقعد بالأرض الذي لفت انتباه كل الحاضرين، حتى وصل عند «خطَّاب»، وضع الكرسي بجوارهما ليكون ثالثهما، ثم جلس دون أن يتفوَّه بكلمة، ظل يحملق إلى «خطَّاب» في صمت مشحون بالغضب، نظرت إليهما ثم سألت:

ـ مين حضرتك؟!

التفت إليها «الحلبي»:

ـ ممكن تسيبينا لوحدنا خمس دقايق؟

أربكتها نظرته التي جاءت من قلب بركان خامد، ثم تنهَّد متمالكًا أعصابه:

ـ هُمَّ خمس دقايق مش أكتر.

ثم نظر إلى «خطَّاب»:

ـ ولَّا تحب نتكلم عادي قُصادها؟!

ندَّت من «خطَّاب» إشارة إلى الحسناء بالانتقال إلى طاولة مجاورة، قامت مسرعةً، وجلست على مقربة منهما، حينها جاء النادل بالقهوة، ارتشف منها ببرود، ثم زَفَر زفرة طويلة وقال دون النظر إليه:

ـ عاوز إيه؟!

نظر إليه «الحلبي» بمقت، وشكر الله على أنه ترك سلاحه في السيارة، فلولا ذلك لصنع في جبينه ثقبًا يرى منه الضفة الأخرى من النيل، لكنه لا يزال يحتفظ ببعض الرَّصَانَة والرُّشد.. تَجَالَدَ قائلًا:

ـ طبيعي إنك ماتقدرش تبصلي وانت بتكلمني.

رمقه «خطَّاب» بطرف عينه، ثم أخذ يضحك في سخرية، واستدار له برأسه:

ـ ما تلخَّص يا «حلبي» وتقول جاي ليه!

أخرج «الحلبي» ورقة مطوية نظر إليها في أسَف، ثم وضعها أمام «خطَّاب»، فسأله:

ـ إيه دا؟

ـ افتحها.

بإصبعين لم تغادرهما غطرسة السلطة، فرد الورقة على الطاولة، ثم مرر عينيه على السطور سريعًا:

ـ مش فاهم حاجة!

اقترب «الحلبي» منه ولم يعُد متسعٌ بين حاجبيه لاستيعاب أرقام جديدة:

ـ عاوزك تحفظ اللي مكتوب في الورقة دي زي اسمك.

ـ زي اسمي؟!

ـ دا أهم من اسمك.. دا علاج «تاليا» بنتي.

ارتشف «خطَّاب» من القهوة، ثم أشعل سيجارة، واسترق نظرة إلى «مريم» التي تتابع الموقف من بعيد، ثم أردف:

ـ ماخبيش عليك، أنا عاذرك.. ومراعي اللي انت فيه.. أنا عرفت إن بنتك اتخطفت من تلات أيام.. وصدقني لو كنت لسَّة في الخدمة كنت ساعدتك..

ثم أزاح الورقة تجاهه، وأكمل:

ـ بس للأسف، إنت جيت عنوان غلط.

حينها قبض «الحلبي» على ذراعه:

ـ الورقة دي هتفضل معاك لحد ما ألاقي العنوان الصح.

ثم نهض، وقد غلبه غضب عارم:

ـ «خطاب»، في يوم قريب هتصحى من نومك على كابوس.. هتصحى تلاقيني فوق دماغك.. وساعتها هتتمنى الرحمة ومش هتنولها.

****

لكل منا نقطة ضعف، غير أن بعضنا يتميز بقدرة فائقة على إخفائها عن إدراك المحيطين.. تظل دفينًا، مختبئة في ثنايا النفس، حتى تشتبك بخطّاف صائد العثرات، حينها يَتَبَدَّلَ كُل شَيْءٍ، ويصير صائدها مُتَحَكِّمًا فِي زِمَامِ الْأُمُور.

لم يتخيل «خطَّاب» للحظة أن الجزء الأهم في حياته سيكون طرفًا في تلك الأحداث: ابْنه، بعضه الأغلى من كله، مُسَجًّى أمامه خلف الحاجز الزجاجي على منضدة تشبه مثيلاتها الموجودة بغرف العمليات، فاقد الوعي لَا يُحرِّك ساكنًا.. اتسعت عيناه وأخذ يصرخ كالمجانين:

ـ يا أنجاس يا ولاد الكلب.. لو لمستم شعرة من ابني هادفنكم بالحيّا.

دوَّى بها صوته في أرجاء المكان، فنظرت إليه الملثمة من خلف الحاجز الزجاجي بعينين تملؤهما الشماتة، وأشارت بسبابتها صوب ابنه باستخفاف وسخرية، ثم غادرت الباب الذي يفصل بين الغرفتين، وترجَّلت نحوه ببرود وقالت:

ـ هتدفع تمن شتيمتك حالًا، ماتستعجلش!

خرج «منير» عن صمته:

ـ حتى لو «خطَّاب» مجرم.. ذنبه إيه العيل الصغير؟! إنتم كدا مجرمين أكتر منه.

أولت كتفيها لـ«خطَّاب»، ثم قالت وهي تسير نحو «فارس»:

ـ هو السبب.. اللي زي «خطَّاب» مالوش طريق سالك تجيبه منه.. الغاية تبرر الوسيلة.. ولَّا إيه يا عم المثقف؟!

اشتبك «كريم» قائلًا:

ـ غاية إيه وزفت إيه؟! إنتم ناويين على إيه بالظبط؟!

وقفت خلف «فارس» تنظر إليهم جميعًا، وقد ارتعدت فرائصهم، ثم أومأت برأسها إلى الملثم، فاقترب منها، ووضع فوهة سلاحه فوق رأس «فارس»، بينما قالت في جزل:

ـ إنت اللي اخترت يا «خطَّاب».. أظن جه الوقت اللي نشوف فيه مع بعض شطارة الجرَّاح اللي معانا.

تصلَّبت حدقتا «خطَّاب» بينما تابعت الملثمة:

ـ دلوقتي بس هاجاوبك ليه «فارس» هو الوحيد اللي إيده كانت مش مربوطة زيكم.. عشان نضمن سلامة ابنك وهو بتتعمل له العملية.

زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَت قُلُوبُهُمُ الْحَنَاجِرَ، ولم يعد لـ«خطَّاب» مساحة من الدنيا سوى المسافة الفاصلة بينه وبين ابنه، بينما بدأت الملثمة في تحرير «فارس» من قيوده وهي تقول:

ـ «فارس» هيقدم لكم دلوقتي أحلى وأغلى طبق لحمة في العالم.

ثم اعتدلت تنظر إلى الجميع، وأكملت:

ـ الشيف «فارس» أشطر طباخ لحوم في مستشفى «جمال» بيه، هيقوم بدوره اللي متعوِّد عليه، كان بيعملها كل يوم بدم بارد.

ثم صرخت في «فارس» ورأسه مسقوف بسلاح الملثم:

ـ قوم.

وضع يديه على الطاولة، يحملق إلى الجميع في صمت، ثم نظر إلى «خطَّاب»، وهز كتفيه في وضعية «ماذا أفعل؟!»، فصرخت فيه من جديد:

ـ بقولك قوم.

نهض ببطء يليق بعدد الساعات التي قضاها على كرسيه، ثم دفعته ناحية الغرفة.. تقدم خطوتين كمن يتعلم الحبو، وفي الخطوة الثالثة أصبح بمحاذاة «كريم» الذي قبض على ذراعه بقوة، ثم نظر بين عينيه وقال:

ـ إنت أكيد مش هتئذي العيل اللي جوّة.. أكيد مش هتسمع كلامهم.

قالها بنبرة توسُّل يستجدي بها مشاعره، فانتزع «فارس» ذراعه بقوة:

ـ تعالى حط راسك تحت الطبنجة وبعدين اتكلم.

ثم مضى ومن خلفه الملثمان، فصرخ «كريم» قائلًا:

ـ إنت مش بني آدم.. لو لمست الواد موتك هيكون على

إيدي.

بِفمٍ مُطْبَق، رَاقَبَ «خطَّاب» الموْتَ وَهُو يَزحَف أمامه صَوْب قَلبِه، ارتعَش جَسدُه المُنهك، وتحولت رعشته إلى انتفاضة، الدِّمَاء غَلت فِي عُروقه، واصطبغ وَجهُه باللون الأحمر القاني لدماء تكاد تنفجر في العروق، كان يَزُوم كَإبرِيق صخب فَوْق نِيران حَامِية، تَحولَت سوآت حَياتِه إلى أشبَاح تَطُوف بِالْمكان، تَستعْرِض لَه شريطًا أسوَدَ مِن الرَّذائل التِي دُفنت في قبو الزمن، غَاصَت بِأنْيابهَا الحادَّة فِي أعمَاق نَفسِه حَتَّى نَزفَت حَسرَةً وَندَمًا، التَهمتْ مَا تَبَقَّى لَه مِن أملٍ فِي النَّجَاة، واحتَسَى مِن قَيْح الخبُث وقبيح أعْماله.

أُسْدِلَت السِّتَارَةُ الدَّاخِلِيَّةُ بِبُطْءٍ وَحَلَّتْ معها الْعَتَمَةُ فِي رُوحِه، ليس من شيمته البكاء، لكن الموقف كان أكبر من أن يتماسك أمامه، تَحررَتِ الدُّموع التِي يَندُر أن تَجُود بِمثْلِهَا عينا «خطَّاب»، صرخ صرخةً لم تعتَدْها أحباله الصوتية، فشرخت صوته وهو ينهار:

ـ أنا اللي قتلت «سيد الونش».

زلزل بها الأرض من تحت الحاضرين، واقشعرَّت أبدانهم من فرط تكرارها مرارًا حتى قالوا: ليته سكت، دون أن يتوقف عن ترديدها بصوت خفيض وعيناه ملتصقتان بباب الغرفة، تنهمر منهما الدموع.

رَاحَ رَأسُه يهتَز يَمنَة وَيسرَة، كأنَّمَا يَتلُو ترْنيمة الموْتِ، ترنيمة مكونة من جملة واحدة: «أنا اللي قتلت سيد الونش»، ثم

تراخت جفونه في استسلام، لحظات من الظلام المؤقت فصلته عن ذلك الجحيم، ثم فتح عينيه الذابلتين ببطء لينظر تجاه «جمال منتصر» ويعود بالذاكرة لشهورٍ مضت، عند تلك النقطة التي جلس فيها خلف مكتبه بالمستشفى، وَاضِعًا سَاقًا عَلَى سَاقٍ، بينما يقول له «منتصر»:

ـ اشتباه في جريمة قتل مين؟! أنا مش فاهم حاجة معاليك.

نهض «خطاب» حينها ببرود واتكأ على مخارج حروفه:

ـ أنا آسف إني جيت لك من غير معاد يا «جمال» بيه، نأجّل كلامنا لما الموضوع يكون بشكل رسمي، وتشرفني ساعتها في مكتبي، مع المحامي بتاعك.

ـ رايح فين يا «خطاب» باشا؟!

ـ الكلام مالوش لازمة.

ـ اقعد يا باشا واستهدى بالله.. صدقني مش فاهم حاجة.

ـ عاوز تفهم؟!

ـ أكيد معاليك.

ـ يبقى تتفضل معايا لحد باب المستشفى وأنا هافهمك.

ـ وهنا ماينفعش؟!

صوَّب نظراته الغامضة تجاهه، وأطال النظر، ثم أجاب:

ـ هنا هتسمع وبس.. لكن على بُعد كام خطوة هخليك تسمع وتشوف.. ودا آخر كلام عندي.

وانتظر حتى نفذت كلماته إلى صدره واستقرت، فتفاقم التوتر والقلق في أعماق «جمال منتصر»، وطفح على ملامحه وهو ينصاع:

ـ أوامر معاليك.

في رضوخ واستسلام، سار خلفه خارج مكتبه حتى وصلا إلى المصعد. لم يتفوه «خطَّاب» بكلمة، أحد أساليبه في الضغط النفسي على خصمه: تركه كالنيران يأكل بعضها بعضًا، اقتربا من بوابات المشفى، فرمقهما «هيثم»، موظف قسم الاستقبال، عن بُعد في حنق وغلٍّ مما بدر من طاووس الداخلية منذ قليل، لمحه «خطَّاب» ومنحه ابتسامة زادت من غيظه، ثم خرجا من البوابة، ووقفا أمام بابها العمومي، أخرج «خطَّاب» سيجارة ووضعها بين إصبعيه قائلًا:

ـ من يومين، جالي تليفون من رقم غريب..

ثم شرح بعدها أن المتصل يُدعى «سيد الونش»، طلب منه مقابلة شخصية لأمر مهم متعلق ببدائرة خدمته، رافضًا المجيء إلى القسم؛ خوفًا من المساءلة تجاه ما يقبع في صدره من بوح ثقيل.. على غير عادته، وافق «خطَّاب» على مقابلته بعيدًا، وديًّا، ليبدأ «الونش» حديثه قائلًا:

ـ الأول يا باشا، عاوز منك الأمان وتضمن سلامتي.

ـ مش لما أعرف الأول حكايتك إيه؟!

ـ هتعرف يا باشا كل حاجة.. بس أضمن الأمان الأول.

ـ ماتقلقش.. اتكلم.

ـ بُص يا باشا.. أنا وسيط تجارة أعضاء.

جحظت عينا «خطَّاب» قائلًا:

ـ وما لك نخور كدا ليه، كأنك بتقولي أنا دكتور أسنان؟!

ـ يا باشا أنا لا باضرب حد على إيده ولا باخطف حد.. الناس هي اللي بتيجي لحد عندي عاوزة تبيع.

ـ وبعدين؟!

هرش «الونش» طرف شاربه بتوتر، ثم أجاب:

ـ وبعدين يا باشا كله بيتراضى.. المحتاج بيدفع، والبايع بيسلّم ويستلم، وكله يخرج من المستشفى معاه اللي يخصه، عضو مقابل فلوس، بس عمري ما كنت سبب إن حد يموت.. زي ما حصلت في المرة الأخيرة!

أخرج «خطَّاب» علبة سجائره، واستلَّ منها سيجارة دسَّها بين شفتيه، ثم أشعلها والتقط منها نفَسًا عميقًا خرج دخانه مع زفيره، ثم سأل بترقُّب:

ـ مين اللي مات؟!

ـ مش مات بس يا باشا.. دا تقريبا اتشفّى حتّة حتة.

ـ الري بالتنقيط دا مابحبوش.. أنا ادّيتك الأمان عشان تقول كل اللي عندك.. اتكلم ماتخافش.

ـ في يوم، الدنيا كانت ناشفة، ومفيش لا بيع ولا شِرا.. الشيطان لعب في دماغي وغويت عيل ابن ناس، وفهّمته إني مريض كلى ومحتاج حد يتبرع لي.. والواد عشان طيب وخام صدقني.. سلّمته للمستشفى دخل ماطلعش.

ـ مستشفى إيه؟!

ـ مستشفى الحياة.

سحب نفسًا من سيجارته، ونفثه في وجه «الونش»:

ـ بتاعة «جمال منتصر»؟!

ـ أيوه معاليك.. بس أقسم بدين الله ما كنت أعرف إنه هيموت.. منه لله «مناع» هو السبب.

ـ «مناع» مين؟!

ـ اللي بيقاسم معايا في الليلة.. أنا باجيب له المتبرع وهو اللي بيرتب كل حاجة مع المستشفى.. بيتفق مع «جمال منتصر» اللي بيتابع كل التفاصيل من بعيد، ودكتور «فارس» بتاع الجراحة دراعه اليمين، وعشان كل حاجة تبان قانونية بيعملوا ورق إن دا تبرُّع مش بيع.. بس «أنس»، الله يرحمه، كانت التحاليل بتاعته بتقول إنه

ماينفعش يتبرع، و«مناع» عشان يخلي المصلحة ماتضيعش زوَّر التقرير، والواد دخل على عماه.. وهُمَّ في العمليات، الواد جاله نزيف داخلي، و«فارس» بلَّغ «بجمال منتصر» إن الواد خلاص في حكم الأموات.

ـ طبعًا «بجمال منتصر» أمر بتصفيته.. ما هو كدا كدا رايح في داهية، يبقى يستفيدوا من كل حتة في جسمه!

ـ بالظبط معاليك.

ـ لو كلامك دا طلع صح هاطلّعك منها زي الشعرة من العجينة.. بس لحد ما أتحقق من الموضوع، مش عاوزك تفتح بوقك بحرف مع أي مخلوق.. مفهوم؟!

ـ أوامر معاليك.. بس سيادتك وعدتني إنـ..

قاطعه «خطَّاب»:

ـ ماتخافش يا «سيد»، أنا كلمتي سيف.. حتى لو كنت وسخ وشغال في الشمال، كفاية إنك هتساعدنا نوقَّع ولاد الكلب دول ونخليهم يتحاسبوا.. قوم روَّح دلوقتي، بس وقت ما أتصل بيك...

ـ هتلاقيني رهن إشارتك معاليك.

ـ يومين وهاكلمك.. يلَّا مع السلامة.

ـ سلام يا بشويَّة.

****

لم يستشعر «جمال منتصر» حرارة الشمس الحامية وهو يستمع لحكي «خطَّاب» عن كل ما عرفه عن نشاط مشفاه المشبوه، سَرَتْ فِي جَسَدِهِ مَوْجَة قَاسِيَة مِنَ الْبُرُودَة، عزلته عن كل ما يحدث حوله في العالم الخارجي. كُل مَا تَرَاءَى أَمَام مُخَيِّلَتِهِ فِي تِلْكَ اللَّحَظَات، كان قفصًا حديديًّا داخل محكمة، تتراص أمامه عدسات المصورين، ورجال الصحافة والإعلام الوافدون من كل صوب لتغطية قضية هزت الرأي العام، واسم كبير في عالم الطب والسياسة، وصل تاريخه اللامع إلى لحظة الأفول، مع حبل مشنقة يلتفُّ حول عنقه!

حدث ذلك حين أنهى «خطَّاب» كلامه، تمالك «منتصر» أعصابه وسأله:

ـ بغض النظر معاليك عن الكلام الفارغ اللي أكيد وصلك من شخص حاقد، ومفيش أكتر منهم.. تقدر تقولي إيه الدليل؟!

لعق «خطَّاب» شفته السفلية ومنحه نظرة حادة قائلًا:

ـ بتعرف تلعب شطرنج؟!

تجمدت ملامح «منتصر» بنظرةٍ تنم على دهشةٍ وتفكير:

ـ ودا إيه علاقته بالموضوع؟!

ـ مجرد معلومة.

ـ أيوه بالعب شطرنج.

ـ تعرف أحرف واحد في اللعبة دي مين؟! هو الشخص اللي يقدر يتوقع أكبر عدد نقلات واحتمالات مستقبلية في اللعبة.. عمومًا نرجع لسؤالك عن الدليل.. حاجات كتير، من ضمنها تفريغ كاميرات المستشفى مثلًا.

ـ للأسف، سيستم الكاميرات بالكامل فيه مشكلة من فترة كبيرة.

هزَّ «خطَّاب» رأسه، ثم دسَّ سيجارته بين شفتيه، وأخذ يبحث عن قداحته، ثم سأله:

ـ معاك ولاعة؟!

ـ لأ.. ما بادخنش.

نظر «خطَّاب» نحو اليسار للحظة، ثم عاود النظر إلى «جمال» وهو يبتسم ببرود قائلًا:

ـ طب شايف الكشك اللي على الرصيف دا؟ أستسمحك تجيبلي منه ولاعة.

نظر «منتصر» إلى الكُشك الذي يبعُد عنهما بضع خطوات، التهبتْ وجنتاه وانتفخت أوداجه كمصارع تُعتصر رقبته، لا يُصدِّق ما سمع.. ألذلك الحد وصل الاستخفاف والاستعلاء على رجل بمكانته؟! كيف لضابط مهما بلغت رتبته أن يتعامل معه كفرد أمن في خدمته؟! لكن ما بجعبة «خطَّاب» ما زال مجهولًا، لذا...

«إِنَّ كُنْتَ لَا تَعلَم مَكَان السِّيَاط فلَا تَغْضِبْ سَيِّدَك»،

نظرية شرعها «منتصر» لنفسه:

ـ أوي أوي.

قالها «جمال» مبتلعًا معها كبرياءه، وأدار ظهره سريعًا متوجهًا إلى الكُشك، مطَّ شفتيه الغليظتين وسبه في سره بأقبح الشتائم، حتى وقف أمام بائع الكُشك:

ـ هات يا ابني ولاعة.

نظر إليه البائع في توتر قائلًا:

ـ إزيك يا «جمال» بيه؟

ـ اتلحلح وهات ولاعة بسرعة.

ـ معلش يا باشا، ممكن تبص على الشاشة اللي في ضهري؟

لم يستوعب «جمال» كلام البائع وصاح فيه:

ـ نعم؟!

ـ «خطاب» باشا كان هنا من شوية، وقال لي لما سيادتك تيجي أقولك تبص على شاشة المراقبة اللي في الكشك.

رفع «جمال» عينيه فوق البائع، واستند بيده إلى علب الحلوى دون وعي وهو يتأمل شاشة موصَّلة بكاميرا مراقبة الكشك التي تغطي حيز باب المستشفى، وتعرض تفاصيله بوضوح، وقد ظهر فيها «خطَّاب» وهو يشعل سيجارته

يشتهي الهدوء، ثم لوّح بيده ساخرًا لـ«مكعصر» عبر شاشة الكاميرات.

اعتصرت قبضته إحدى علب البسكويت ليسحق كل قطعها بالكامل، مع تلك الرجفة التي سرت في وجنته وهو يكزّ على أسنانه، أشار «خطّاب» في الشاشة بأطراف أنامله لـ«جمال» أن يأتي، فأدار وجهه وسار نحوه كالمغضوب، بينما أخرج الشيخ رأسه من خلف الكشك وقال بلهجة مكتومة جدًا:

ـ هناك يا باشا مليون علبة بسكويت..

ثم خفض صوته قليلًا:

ـ استخبى على ميتين أماك..

مضى «جمال» الخنفس داخل رقعة الشطرنج، حاصره «خطّاب» ولم يعد له حركة، يعلم أن النقلة القادمة «كش».. مات.. سوف يأخذه بما يليق لم يدره أي احتمال، تمنى في تلك اللحظة أن يزول عنه منصب الملك ويعود لأصله فلا حقيرًا يختبئ في الصفوف الخلفية، يُناور يقوّمه في غضب التحرّش بصفوف الأعادي.

وما إن وصل «جمال» أمام «خطّاب» بصدمت أنفاسه، حتى علق الأخير بنبرة حادة:

ـ حسن تنفذ يا «جمال» بيه، سيستم كاميرات الكشك ماكانش فيه مشكلة.. لأ وصورتها جاية كل تفاصيل اللي

دخل.. واللي لا مؤاخذة ماخرجش.. أنا حتى سحبت كل فيديوهات الفترة اللي فاتت من حودة بتاع الكشك.. ولد مهذب أوي أوي ومتعاون.

ظهر السوط جليًّا في يد «خطَّاب»، رآه «منتصر» بوضوح، ثم استحال إلى سيف بتَّار، يفصله عن قطع رقبته مهارته في التفاوض.

ـ أوامرك يا «خطاب» بيه!

قالها «جمال منتصر» وهو يفك رابطة عنقه، وقد تصبَّب عرقه بغزارة، فابتسم «خطَّاب» بجزل، وقال:

ـ من الأول يا باشا قُلت لك أنا جايلك بصفة ودية مش بشكل رسمي.. أنا جاي أساعدك.. حرام اللي بنيته في سنين يتهدّ في ثواني، مش كدا ولّا إيه؟!

تراقصت شياطين الجحيم في عينيه مع آخر حروفه، وهو ينفث دخان سيجارته في وجه «منتصر» الذي سعل قائلًا:

ـ مفهوم طبعًا.. متهأليش نكمّل كلامنا في المكتب

ـ هي لسَّة فيها مكتب؟! المفروض إن الكلام خلص.

ـ خلص على إيه؟!

ازداد تصبُّب العرق على وجه «جمال» وهو ينظر إلى «خطَّاب» نظرة غريق، فداعب «خطَّاب» نهاية ذقنه بضربات من إصبعيه السبابة والوسطى اللتين تتأرجحان بالتبادل ذهابًا وإيابًا، قائلًا بابتسامة ساخرة:

ـ على اللي معاليك هتقدَّر بيه الموقف.

تأمل «جمال» الإصبعين وسأل في ارتباك:

ـ 200 ألف؟!

تلاشت ابتسامة «خطَّاب» وهو يثني إصبعه السبابة، مكتفيًا بإصبعه الوسطى التي ظلت مفرودة وحدها أمام وجه «جمال منتصر»، معترضًا على تقييمه للموقف، فتأمل إصبعه وعاود السؤال:

ـ 2 مليون؟!

أخذ «خطَّاب» نفسًا جديدًا ثم نفثه:

ـ كدا نقدر نقول مبروك يا «جمال» بيه.

كَانَت الجُملة الأخيرة إيذانًا بِانْقشاع الغُمة مؤقتًا، أراحته، كارْتياح السجِين إلى تَأْجِيل حُكْم الإعْدام، أراد «منتصر» استغلال الموقف والخروج بأكبر مكسب يمكنه اغتنامه، مسح بكفيه على خديه كأنما يزيل عن وجهه ما علق به من آثار الضغط والتوتر، ثم أردف:

ـ لِيَّ طلب عند معاليك.

رمى سيجارته وعقد ذراعيه خلف ظهره، ثم انحنى ينظر إلى حذائه ليتأكد أنه ما زال محافظًا على بريقه قائلًا:

ـ تحت أمرك يا «جمال» بيه.

تردد ثلاث مرات قبل أن يقول:

ـ محتاجين تصريح دفن للواد علشان يخرج من التلاجة.

رفع «خطَّاب» رأسه، ثم اقترب منه رويدًا وأخذ يهمس له في أذنه:

ـ من عينيَّ.. لو حتى عاوز تصريح دفن باسمك مفيش مشكلة..

استدرك «خطَّاب» ضاحكًا، قبل أن تتغير ملامحه قائلًا:

ـ باهزَّر مع معاليك.. بكرة يكون التصريح على مكتبك.

****

الفصل الحادي عشر

استيقظ «الونش» فزعًا بعد كابوس جديد، من سلسلة كوابيس لا تنتهي، بطلها الأوحد «أنس».. أزاح «الونش» عنه غطاءه، وأنزل قدميه من على السرير، معتدلًا في نصف جلسة، ثم مسح وجهه المتصبب عرقًا، ووضع أذنيه بين راحتيه لعله يُخرِس ذلك الصوت الذي لا يكفُّ عن محاكمته في الصحو والمنام.

انبعث من مِئذنة المسجد صوت الشيخ وهو يصلي بالناس صلاة الفجر، ويرتل القرآن الكريم قائلًا بصوت عذب شجيّ: {ونَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}. سالت دموعه وهو يُسائل نفسه: لماذا صوت الغريزة داخلنا أعلى دومًا من صوت الضمير؟! لماذا تنتصر شهواتنا، التي نعلم ونحن نساق خلفها أنها مجرد لذة مؤقتة تورِد الهلاك، على يقيننا بيوم الحساب؟! متى سَيكف «أنس» عن زِيارَتِي لَيْلًا؟ متى سيَصمُت عن الصُّراخ بِداخِلي؟ لا يزال صوته يَطِنُّ كذبابة النَّمْروذ في أُذُني، ولن يجدي الضَّرْب بِالنِّعال، فَمَا يُسكت طَنِين الذَّبَاب لَا يُسكت صوت الضمير.

بعدما استقر والتقط أنفاسه، أرسل إلى «خطَّاب» رسالة مقتضبة عبر تطبيق «واتس آب»، يطلب منه اللقاء لعله يجد عنده ما يريح ضميره من العذاب. وعند الغروب، كانت المقابلة، في المكان السابق ذاته، حيث انتظر

«الونش» طويلًا قبل أن تظهر سيارة «خطَّاب» في الأفق، وتقترب منه ببطء مستفز، ثم توقفت على بُعد خطوات وغادرها «خطَّاب» بخُيلاء، وفي يده سيجارة محقت النيران نصفها، ليتساءل فور أن تلاقت أعينهما:

ـ خير يا «سيد»؟! مش قُلت لك أنا اللي ها كلمك؟!

ـ معلش يا باشا، أنا مش مرتاح.. مش عارف أنام.. كنت محتاج سيادتك تطمني بس وصلت لإيه!

ـ يعني إيه وصلت لإيه؟! ما تطلب مني أرفع لجنابك تقرير وأستنى منك التعليمات بالمرة!

ـ مش القصد يا باشا، أنا آسف.. والله العظيم ما أقصد.. أنا بس عايز معاليك تطمني.

ـ طب اسمع مني الكلمتين دول، ودي آخر مرة هاسمح لك فيهم تتكلم في الموضوع دا قبل ما أقولك.. أنا جرجرت «جمال منتصر»، وفهم إني ممكن أتستَّر عليه مقابل رشوة.. واحد ملطوط زيه كان سهل يبلع الطعم واعترف بكل حاجة.. دا غير إن الواد لسَّة في التلاجة لحد دلوقتي.

امتَعض وَجْه «الونش» بَعْد تِلْك الجُملة التي نكأت الجرح أكثر.. لم يستطِع مَنْع نَفسه مِن تَخيُّل «أنس» يَرقُد هُنَاك وحيدًا، دَاخِل ذَلِك الممرّ البارد، لَا يَعلَم أحد بِمكانه سوى بَعْض الأوْغاد، ازدَرد رِيقه بِصعوبة، ثُمَّ أردَف قائلًا:

ـ طب وناوي على إيه يا باشا؟!

ـ لازم يا «ونش» تسمع كلامي للآخر، وإلا كل اللي باخطط له هيبوظ.. أنا كل دا باحاول أخرّجك منها زي ما وعدتك.. كلمة منك هنا ولّا هنا ممكن كل شيء يبوظ، وساعتها ماتلومش غير نفسك.

ـ يا باشا رقبتي.. أنا أصلًا ماليش غيرك.

ـ استنى مني تليفون قريب يا «سيد».. أوعدك إني هاريّحك.

****

صمت «خطَّاب» وانحنى بجسده وانتابه شعورٌ ملحٌّ بالرغبة في القيء، بعد اعترافه الذي ظن أنه لن يبلغ فمه يومًا، حلَّ هدوء مُوحِش في أرجاء المكان، نظر «منير» إلى «منتصر» و«خطَّاب» وقد انتكسا على الطاولة «صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية»، سقطت عنهما الأقنعة وانكشف المستور، وظهرت أدلة الإدانة ومستودع الغدر.

احدودب ظهر «منير» حين انحنى مثل «خطَّاب» وهمس له:

ـ كَمِّل بسرعة.. ابنك مالوش ذنب.

ظل «خطَّاب» منكِّسًا رأسه، اختلس نظرة إلى حذائه الذي ذهب عنه بريقه، انطفأت لمعته مثلما انطفأ كل شيء، لم يتبقَّ له سوى الحسرة والندم اللذين لن يُغنيا عنه شيئًا، ثم رفع رأسه ينظر إلى ما خلف الحاجز الزجاجي الذي يفصله عن ابنه، وأردف صارخًا:

ـ «الونش» كان مصمم يكشف المستور، عشان كدا كان لازم يسكت، فبعتّ له «أبو جبل».

سأله «منير»:

ـ «أبو جبل» مين؟!

ـ أمين شرطة كان شغال معايا.. واحد من رجالتي اللي كنت باعتمد عليهم في شغلنا برَّه الداخلية.. طلبت منه يسكِّته، راح رماه من شباك مكتبه.. أديني أهو اعترفت

بكل حاجة.. ابني مالوش دعوة.

قالها وظل يصرخ مناديًا على ابنه داخل الغرفة بجنون دون توقُّف، حتى نَفَرَ «منير» من صوته فاستخدم كفيه لعزل أذنيه عن ضجيجه، ثم انفتح باب الغرفة ببطء.. توقف «خطَّاب» عن الصراخ، واشرأب بعنقه إلى ما خلف الباب.. اعتدل معه كل مَن في الغرفة، ينظرون جميعًا في الاتجاه نفسه، دخل الملثم وبين راحتيه طبق مغطى بقبة نحاسية يعلوها مقبض صغير، لاحظ الجميع رعشة يديه وعينيه اللتين سالت دموعهما خلف اللثام، سار بضع خطوات ثقيلة وكأن ساقيه لم تعودا تحملانه، حتى ارتكز خلف «كريم» وجعل الطبق أمامه، ونظر إلى «خطَّاب» نظرةً تُعلن أنه فات الأوان، ثم رفع الغطاء النحاسي، ليشهق الجميع بعدما رأوا كُلْيَة بشرية تحفها دماء ساخنة، تبدو كما لو سالت للتوّ، ثم أزاحها بأطراف أصابعه لتسقط في طبق «كريم»، الذي وضع يده فوق رأسه في ذهول وأخذ يهتف:

ـ عملتم إيه في الواد يا ولاد الوسخة؟!

فغر «خطَّاب» فاه وارتعشت شفته السفلى بالتزامن مع جحوظ عينيه، وانتابته صدمة عصبية.. لم يتخيل أن هناك قلوبًا أشد قسوة منه، ظل محملقًا في الطبق يحاول عقله تكران ما يحدث، ربما كان كابوسًا وسوف يفيق منه على فراشه بعد لحظات، أو ربما ضربه الجنون وما يراه مجرد نسج من خياله المريض.

كل بشاعة ما سبق وهوله لم يكُن ليبلغ صدمة تلك اللحظة التي تحولت فيها الكوابيس والهواجس إلى واقع فاقت آلامه أي خيال عاتٍ، وتضاعفت صدمته حين انحنى «كريم» على الطبق وقبض بيديه على كُلْيَة الطفل الصغير، وبدأ يلوكها في نهم!

أخذ يأكلها بشهية صائم لحظة الإفطار، بينما تسيل دماؤها من فمه وهو يقضمها بفكيه، وتلطخت يده باللون الأحمر القاني في مشهد يصعب على العقل تفسيره.. سرتْ في جسد «خطَّاب» قشعريرة وحُبست أنفاسه في صدره، حتى أوشكت رئتاه على الانفجار، وأخذت شفتاه ترتعشان، وتفككت أوصاله وصار جسده مثل «الجيلي»، وقد تعلَّق كيانه بين الحياة والموت، ثم سالت منه الكلمات بفوضويَّة:

ـ أنا أكيد بحلم.. يا إما انت مجنون.

لم يكفَّ «كريم» عن المضغ، وظل على وضعيته وهو يقول:

ـ العقل والجنون شيء نسبي يا «خطَّاب».

تذكر «خطَّاب» تلك الجملة التي سبق له أن سمعها قبل نزع الوشاح عن رأسه في بداية استعادته الوعي بالغرفة، لحظات ما بين الشك والجنون كادت توقف قلبه، ثم رفع «كريم» رأسه قائلًا بفم صُبغت شفتاه بالدم:

ـ عمرك دُقْت لحم بني آدم قبل كدا؟!

ثم فكَّ القيود عن خصره وكأنها لم تكُن! نهض بجسده الممشوق فاشرأبَّت الأعناق معه، ومنحه الملثم منديلًا عريضًا مسح به يده وشفتيه، ثم ألقى به على الطاولة بجوار مكعب «روبيك».. رفع «منتصر» عينيه عن المنديل ونظر إليه يسأل:

ـ إنت مين؟!

لفَّ جذعه قليلًا دون أن يبرح مكانه، وقلَّب عينيه في الوجوه، ثم أخذ شهيقًا انتفخ به صدره، وأجاب بثقة:

ـ كريم عظيمة.. أخو «أنس».. اللي اتصفى جسمه بتعليماتك يا «جمال» بيه.

ثم أدار رأسه نحو «خطَّاب» وأردف:

ـ «أنس» اللي طَلَّعت له تصريح دفن.. ومانعرفش لحد دلوقتي هو مدفون فين.. حتى «سيد الونش»، الشاهد الوحيد على كل اللي حصل، قتلتوه عشان تداروا على جريمتكم، وافتكرتم إنها خلاص خلصت على كدا.

مدَّ ذراعه بعدها، وانتزع السلاح من بين يد الملثم، فنهض «منير» من مجلسه وسقطت عنه قيوده أرضًا، وأشار بسبابته إلى «كريم»:

ـ إحنا متفقين من الأول إن مفيش دم!

لم يعبأ «خطَّاب» بكل ما يحدث حوله في لحظة

انكشاف ما خلف الأقنعة، وصرخ بتوسُّل:

ـ اعملوا اللي انتم عاوزينه.. بس أشوف ابني!

تحرك «كريم» نحوه، وما إن وقف خلفه حتى وضع فوهة السلاح فوق رأسه، ثم مال على أُذنه وقال:

ـ الضنى غالي، مش كدا؟!

ثم أشار بيسراه نحو الرجل الملثم قائلًا:

ـ عارف مين اللي واقف هناك دا ومش عارف يُصلُب طوله؟! دا أبو «أنس».. اللي اتغدر بيه من أوساخ زيكم، تعرف مين «مريم علام»؟ دي «شمس».. اللي طفيتم نورها وحرقتم قلبها على أخوها الصغير.

جحظت عينا «خطَّاب»، وحارت الكلمات على شفتيه، بينما التقط «كريم» نفسًا عميقًا، ثم أردف:

ـ هاسألك سؤال واحد وانت هتجاوب عليه لو عاوز تشوف ابنك.

هزَّ رأسه باستسلام، فسأله «كريم» وشفتاه تحتكان بشحمة أذنه:

ـ فين بنت «الحلبي»؟!

****

انتهى الفيديو الأول عند تلك الجملة، وظهرت على شاشة التلفاز أيقونتان تحملان الاسم نفسه، مع فارق الترقيم (MOVIE1 – MOVIE2)، وعلى الأريكة المقابلة للشاشة، كان مَن يجلس هو المقدم «محمد الحلبي»! فتح هاتفه ومن خلال تطبيق «واتس آب» بدأ بمراسلة «كريم» على رقمه:

قبض «الحلبي» على الريموت، وحرَّك المؤشر ليبدأ الفيديو الثاني، فبدا الكادر مشوَّشًا، مُضْطَرِبًا، مهزوزًا تارةً، وثابتًا نحو السماء تارةً أخرى، وكأن حامل الكاميرا حديث التعامل معها.

Karim Azima
تمام .. شوفت الفيديو الأول
4:38 am
ممكن تقولي آخر جملة كانت في الفيديو إيه؟
4:39 am
فين بنت الحلبي
4:40 am
ده معناه انك صدقتني ووصلت للعنوان صح .. اتمنى تكون لوحدك زي ما وعدتني
4:41 am
متقلقش يا زعيم أنا لوحدي زي ما وعدتك
4:42 am
تمام
4:42 am
عاوز أعرف جبت البنت إزاي؟ وكانت فين
4:43 am
خطاب كان محتفظ بيها عند واحدة من أصحاب مراته التانية .. راقصة من إياهم
4:45 am
جبتها أزاي ؟
4:46 am
تفتكر خطاب كان قدامه حل تاني غير إنه يكلمها ويقولها سليملهم البنت
4:47 am
طب وبعدين حصل إيه؟
4:49 am
اتفرج على الفيديو التاني وانت هتفهم كل حاجة
4:49 am
ماشي يا زعيم
4:49 am
Type a message

كان الفيديو الثاني قديمًا، ومضى على تصويره أربع سنوات.. لاحظ «الحلبي» ذلك من تاريخ التسجيل وساعته اللذين ظهرا بخط رفيع على الشاشة، ثم اعتدلت زاوية التصوير مع هزة بسيطة مقبولة، وظهر كوخ خشبي صغير وسط حديقة حُفَّتِ بسور عالٍ، في توقيت الظهيرة بأحد أيام الصيف.

اقترب حامل الكاميرا من الكوخ، ثم ظهر على الشاشة «أنس» عاريًا إلا من «مايوه» قصير، مبتهجًا في سعادة غمرت ملامحه، وأشار إلى حامل الكاميرا أن يتبعه.. ركضا بضع خطوات حتى وقفا أمام الكوخ، ونادى «أنس» على كلبه «كاسبر»، فخرج مُسرعًا فرحًا، وأخذ يتقافز بمرح، ولامس بقائمَيه الأماميين صدر «أنس»، ثم ركضا معًا نحو المسبح تتبعهما الكاميرا، ليقف «أنس» على طرف حوض السباحة، وغمز لحامل الكاميرا، ثم سقط في المياه كأنما تعثَّر دون إرادته.. تطايرت المياه بعشوائية وسالت إحدى قطراتها على الشاشة، بينما غطس «أنس» في العمق لحظات، ثم طفا يضرب الماء بذراعيه بفوضى وعشوائية كأنه يغرق، وصرخ في حامل الكاميرا لإنقاذه.. كانت فتاة تُدعى «صفية»، اهتزت الكاميرا بين يديها، ولم تستطِع حبس ضحكاتها من تمثيله وهتفت بنبرة مرحة:

ـ حرام عليك يا «أنس»!

قالتها تعاطفًا مع نباح «كاسبر» عليه، ثم وثب الكلب بقوة في الماء، وجعل يرفس بأطرافه الأربعة لتتطاير حوله

القطرات، حتى وصل إلى سيده الذي احتضنه، وربت على ظهره بحنان، ليشقَّ به الكلب مياه المسبح، حتى صعدا معًا، ونفض «كاسبر» الماء من على جسده، ثم أخذ يلعق وجه «أنس» بحب قلَّما منحه البشر بعضهم لبعض مهما كانت أواصر الود.

ناولت «صفية» بشكيرًا لـ«أنس» من خلف الكاميرا كي يجفف جسده، وتجمَّدت الصورة وهو يرفع وجهه الملائكي بابتسامة شاب يحمل قلب طفل، ليتأمل «الحلبي» ملامحه بحزن شديد، وعضَّ على شفتيه متأسفًا على شبابه الضائع.

تلاشت الصورة ببطء، ثم ظهر «كريم» جالسًا أمام الكاميرا في غرفة مظلمة لا تظهر من معالمها أي تفاصيل.. اقتصرت زاوية الإضاءة على وجهه فقط، واختلفت جودة الصورة كثيرًا هذه المرة.. كانت ملامحه هادئة كبركان خامد، وتردد كثيرًا قبل أن ينطق بكلمة.. ثم، بعد تنهيدة طويلة تحمل ألف بداية، ألقى على «الحلبي» التحية، وأكمل:

ـ اللي كان في الفيديو من شوية دا أخويا الصغير «أنس»، واللي كانت بتصوره كانت «صفية»، بنت غفير الفيلا.

اختنقت الكلمات في حلقه، وقال بصوت يغالب البكاء:

ـ كان يحبها بجنون، لحد ما تعبت وكانت محتاجة متبرع بالكلى. «أنس» ساعتها قرر إنه يتبرع لها.. بس البيت كله

رفض.

صمت وحدق في الشاشة وكأنه ينظر إلى «الحلبي»:

ـ بعدها بفترة بسيطة «صفية» ماتت و«أنس» حسّ بعقدة ذنب.. ساب البيت واختفى شهور ماكّاش نعرف فيها عنه أي حاجة.. لحد ما وقع في إيد «الونش»، اللي عرف قصته واستغل نقطة ضعفه وشعوره بالذنب، وفهّمه إنه مريض ومحتاج حد يتبرع له.. والباقي أكيد إنت عرفته من الفيديو اللي فات.

هزَّ «الحلبي» رأسه بـ«نعم»، وكأن «كريم» يراه، ثم أردف الأخير:

ـ دوَّرنا عليه كتير، لحد ما عملنا إعلان في الجرايد، وجالنا شاب يعرف معلومات عنه اسمه «منير»، لكن للأسف كان بعد فوات الأوان.. الجريمة كانت خلاص تمت، والشاهد الوحيد عليها اتقتل.. كان شبه مستحيل نوصل لحاجة.. بس بعد فترة ظهرت لـ«منير» خيوط بسيطة عن طبيعة شغل «الونش» المشبوه.. شبكة تجارة أعضاء كبيرة.. كان لازم أدخل في وسطيهم عشان أعرف الحقيقة.. ضحيت بحتة من جسمي عشان أوصل لأي معلومة.

لم يستطِع «كريم» حبس دموعه، وشرح أنه كلما كان ينظر إلى كلب «أنس»، كان يرى فيه طيبة وبراءة شقيقه اللتين أودتا بحياته، فقرر أن يجعل من «كاسبر» نسخة

جديدة.

جعله شرسًا، وصنع منه آلة قتل فتاكة.. حوَّله من كائن أليف إلى وحشٍ كاسر، يستعد به للحظة الانتقام والثأر لصاحبه.. استدرج «مناع» إلى منزل معزول في محاولة منه لمعرفة مزيدٍ من التفاصيل، خاصة بعد الثقة التي بُنيت على بيعه كُليته.. جالسَهُ ساعات يتسامران معًا في حضور «كاسبر».. منحه من الحشيش والخمور ما يعصف بجبال راسخة، ودارت الأحاديث بينهما حتى تفلتت منه جملة استوقفت «كريم»:

ـ احمد ربنا إنك خرجت من تحت إيد «فارس» سليم!

كانت الجملة خيطًا رفيعًا قبض عليه «كريم»، وأخذ يسحبه به ليكُرّ ما في جعبته:

ـ هو فيه حد سافر على إيده قبل كدا؟!

ـ آه.. بيني وبينك أنا السبب.. بس هنعمل إيه؟ مقدر ومكتوب.

ـ إزاي؟!

ـ مفيش.. الواد كانت تحاليله بتقول إنه ماينفعش يتبرع.. فضربْت النتيجة عشان المصلحة تمشي.. ماكانتش أول مرة أعملها يعني.. بس جت عند الواد دا وعقربت.

إحساس باطني أكد لـ«كريم» أن المقصود بهذا الكلام هو شقيقه، فسأله بشكل لا واعي، وبطريقة ظهر فيها

اهتمامه الشديد:

ـ اسمه إيه الواد دا؟!

ـ خلاص يا عم أهو راح للي خلقه.. فُضَّك من السيرة دي.

نهض «كريم» منفعلًا:

ـ الواد دا اسمه «أنس»؟!

انتبه «كاسبر» لـ«كريم» بعدما نطق اسم شقيقه، واشرأبَّ عنق «مناع» في مجلسه، ولحظت عيناه قائلًا بتلعثم:

ـ إنت تعرفه منين؟!

عضَّ على شفتيه بعد أن شعر بتسرُّعه في الإجابة، ونهض مترنحًا من أثر الحشيش والخمر قائلًا بنبرة سبحت بين السطلان ومحاولة استعادة التركيز:

ـ أنا هاغور من هنا علشان القعدة مَسَّخت.

أمسكه «كريم» من ذراعه بقوة وصرخ فيه:

ـ مش هتخرج من هنا غير لما أعرف كل اللي حصل.

تبخَّر أثر السطلان، واستعاد «مناع» وعيه دفقة واحدة حين شعر بتفاقم الوضع، فقبض على زجاجة من فوارغ الخمر، وهشَّمها على رأس «كريم» صارخًا بخشونة:

ـ نزّل أم إيدك دي.

فقد «كريم» وعيه وانطرح أرضًا، إلا أن دوي فرقعة الزجاجة كان بمنزلة صفارة البدء لتحرك آلة القتل المجاورة التي كانت تراقب الأحداث بترقُّب، قفز «كاسبر» في الهواء متخطيًا قانون الجاذبية، وقبض على عنق «مناع» بفكيه، وسقطا على الأرض، ثم شدَّ عضلات فكه بأقصى ما لديه من قوة.. انغرست أنيابه في اللحم، بينما حاول «مناع» أن يضربه بقبضات كانت تخور وتضعف مع انغراس الأنياب أكثر وأكثر، لينسال بحر من الدماء ممتزجًا بزبد «كاسبر» الذي سال بين شدقيه، مع صوت زوامه المخيف، ليشعر «مناع» بظلام أخذ يسيطر على كل شيء حوله، بينما يعتصر «كاسبر» عنقه بعنف، حتى اخترق ناباه الفقرات العنقية، وتسرَّب الدم للقصبة الهوائية، ومزقت أنيابه السفلية الانحناء الرقبي، فحُجب عن «مناع» الأكسجين واختنق.

تسرب إلى فم «كاسبر» طعم الدماء فزاد هياجه، وظل ينهش في لحم رقبة ضحيته التي غاب عن عينيها بريق الحياة.

جثا «كاسبر» بعدها يلعق وجه «كريم» بلسان دموي، حتى استفاق صاحبه ينظر حوله في غثيان.. التفت يمينه ليجد «مناع» جثة هامدة، تسبح في بركة من الدماء.

زحفَ في بطءٍ وتخاذُل حتى وصل إلى أريكته، استند إليها وحاول أن ينهض بمعاناة، و«كاسبر» مشرئبٌّ في

تحفُّز.. لم يكن في الحسبان ما حدث، توتر «كريم» وانتابته حالة من التشتت، شُلَّ تفكيره، وتجمَّد الزمن حوله للحظات لم يرفع فيها عينيه عن الجثة، وبعد نصف ساعة حاول خلاله استجماع قوته، وربت فيه مرارًا على عنق «مناع» حتى تأكد من وفاته، اتصل أخيرًا بـ«منير» وطلب منه الحضور على وجه السرعة.

ـ يا نهار إسود.. قتلته يا «كريم»؟!

قالها «منير» حين وقعت عيناه على الجثة، ثم أحاط رأسه بكفيه في ذهول، ولم يتوقَّف عصب عينه اليمنى عن التشنُّج.

ـ اهدا يا «منير» ووطِّي حسك، أنا ماقتلتوش.. دا «كاسبر».

ـ بلا «كاسبر» بلا «عنبر».. أنا ماليش دعوة!

صرخ «كريم» في وجهه:

ـ هو أنا جايبك تساعدني ولا تورتني أكتر ما أنا متزفّت؟!

انفعل «منير» هو الآخر:

ـ أساعدك في إيه؟! إنت بتغفّلني وجايبني على ملا وشي تلبِّسني جريمة قتل؟

صرخ «كريم»:

ـ امشي.. امشي يا «منير» ولا كأنك شُفت حاجة.. أنا هاتصرف.

ـ طبعًا هامشي.. هي دي محتاجة تفكير؟!

جلس «كريم» على الأريكة بينما اتجه «منير» للخروج.. فتح الباب وتسمَّر لثوانٍ يفكر ثم أغلقه، وعاد منكَّس الرأس، ثم جلس ببطء بجوار «كريم» وسأل:

ـ إيه اللي حصل؟!

ـ ضربني على دماغي فقدت الوعي.. صحيت لقيت «كاسبر» مخلَّص عليه.

ـ ضربك؟!

ـ أيوه.. بعد ما عرفت منه اللي حصل زي ما توقعنا.. «أنس» مات في المستشفى، بعد ما ابن النجسة دا زوَّر أوراق التحاليل بتاعته، عشان يخفي إنه ماينفعش يتبرع.

شرد «منير» للحظات ينظر إلى الجثة، ثم أردف:

ـ توعدني لو ساعدتك ماتجيبش سيرة لـ«شمس»؟!

التفت «كريم» نحوه ببطء، ثم سأله:

ـ بتحبها؟!

هزَّ رأسه في خجل:

ـ أيوه.

ـ وهي؟!

ـ مش عارف.

ابتسم «كريم»:

ـ ماتقلقش.. أختي طول عمرها بتحب الشيكولاتة.

أشار «منير» إلى الجثة قائلًا:

ـ إحنا لازم نستغل المصيبة دي لصالحنا.

وانقضّت على «منير» فكرة من وحي الشيطان، لفت نظر رجال الداخلية لـ«خطّاب» بعدما تأكد من تورُّطه حين التقى أخت «سيد الونش»، بالإضافة إلى المعلومات التي جُمِعت عن سمعته السيئة.. كانت الفكرة إرفاق رسالة مكتوبة مع الجثة، لكن كان من الصعب حمل الجثمان، فقرر «كريم» الاكتفاء بالرأس فقط بعد فصله، مع وضع رقم سيارة زوجة «خطّاب» الباهظة في فم «مناع»؛ للفت الأنظار إلى كسبه غير المشروع.

فشل «كريم» في توفير مناخ بارد لجثة «مناع» لتفادي التحلل وفوحان رائحتها، فعزم على التخلص منها.

كان «الحلبي» يستمع لكل تلك التفاصيل خلال الفيديو، ثم صمت «كريم» لثوانٍ وأردف:

ـ الجثة اللي كنت بتحقق فيها بتاعة «مناع»، وأكيد تقرير الطب الجنائي هيأكد لك كلامي.

ثم عزَّى نفسه قائلًا:

ـ أما بالنسبة للتمثيل بالجثة، فدا كان أقل واجب أقدر أعمله معاه.

لم ينكر أنه بفعلته هذه شاع في نفسه الرضا، وامتلأت روحه إحساسًا بالتشفي، وبلغ بقناعته ما يُذهب عنه شعوره بالذنب تجاه «مناع»، ثم أكمل:

ـ كنت متابع كل تفاصيل القضية من بعيد، ومتابع تحركات «خطَّاب»، خصوصًا بعد وقفه عن الخدمة، لحد ما خطف بنتك «تاليا».. ماكانش قدامنا ساعتها حل تاني غير نزع الاعترافات منهم بالطريقة اللي شُفتها.

ثم هدأت ملامحه، وتراقص عليها شبح ابتسامة لأول مرة منذ بداية الفيديو، وأردف:

ـ معلش نسيت أبارك لك على رجوعها بالسلامة!

نظر حينها «الحلبي» بجواره مبتسمًا، وهو يتطلع إلى ابنته المشغولة باللعب بمكعب «روبيك» الذي منحه إياها «كريم»، ثم عاد يستمع له حين أوضح أنه قد وعد المرأة التي عاونت «خطَّاب» في إخفاء «تاليا» بحمايتها وعدم تعرضها لأي مساءلة قانونية، حيث كانت مغلوبة على أمرها وتنصاع لأوامره رغمًا عنها.

ـ أكتر حاجة خففت علينا المصيبة اللي احنا فيها هو نجاحنا في رجوع «تاليا»، وفي الوقت اللي هتكون بتشوف

فيه الفيديوهات دي، هنكون كلنا برَّه مصر، خلاص يا «حلبي» باشا، مش هنعرف نعيش فيها تاني بعد كل اللي حصل.

ثم نهض من أمام الكاميرا وأضاء المكان، ليكتشف «الحلبي» أن موقع التسجيل هو المكان نفسه الذي يجلس فيه وهو يشاهد مقطعي الفيديو.. ذلك المنزل المنعزل الذي خصصه «كريم» لتسليم ابنته، ثم قبض على الكاميرا وفصلها عن الحامل ليتحرك بها بسهولة، ثم أكد لـ«الحلبي» أن مَن كان في الغرفة ليس ابن «خطَّاب» كما صوّر له، بل كان «ماكيت» مصنوعًا ببراعة من «منير» الذي استغل كل مهارته في حبك الخدعة، التي لولاها ما كان يُمكن نزع اعترافات «خطَّاب».

ثم توجه «كريم» بالكاميرا إلى باب إحدى الغرف.. كان للباب شُرَّاع من فواصل حديد في الجزء العلوي، نظر «الحلبي» عن يساره، فوجد الباب نفسه، ثم تابع «كريم» في الفيديو وهو يدخل بالكاميرا من خلال فتحة الشُرَّاع، ليظهر «خطَّاب» و«منتصر» و«فارس»، مقيدين داخل الغرفة، مُكمي الأفواه، معصوبي الأعين، يجلس أمامهم «كاسبر» في تأهُّب، تحول بينه وبينهم سلسلة حديدية تطوِّق رقبته، وفي نهايتها قفل حديدي موثوق في شُرَّاع الباب، قبل أن يُنهي «كريم» كلامه بلهجة مودِّع:

ـ دلوقتي الاختيار في إيدك.. معاك في الفيديوهات اعترافات كاملة تقدر تستغلها في إجراءاتك القانونية

وتسلمهم لـ«عشماوي» بكل سهولة.. أو تحقق العدالة السريعة بنفسك، وتكتب لهم تصريح دفن.. كل اللي عليك تستخدم المفتاح وتفكّ «كاسبر»، وهو عارف هيعمل إيه.

ثم نظر إلى الكاميرا معطيًا إياه التحية العسكرية، وأغلق بعدها التسجيل.

نهض «الحلبي» تجاه الغرفة، ومن خلال الشُرَّاع ظلَّ ينظر إلى ثلاثتهم دقائق، ثم نظر إلى ابنته «تاليا» المنهمكة بمكعب «روبيك»، وأسهب النظر إلى القفل الذي بات فيه مفتاح، ينتظر أمر الدوران.

تمت بحمد الله.

أُقدِّم لكم أجمل عبارات الشكر والتقدير، من قلبٍ فاض بالمحبة والمودة والاحترام لكم، على ما قدمتموه لهذا العمل:

ـ أم العيال.

ـ الكاتب المبدع أشرف الخمايسي.

ـ صاحب اللمسة الفنية المستشار محمد فوزي بكري.

ـ صديقي الغالي اللواء شريف أحمد.

ـ المستشار صلاح أنسي عيسى.

ـ الأستاذ هاني محمد الجزيرـ

ـ الأستاذ إيهاب عبد المنعم (أنا إيهاب يا ابني مش هبة).

ـ الكاتب الواعد محمود نادر.

ـ الأستاذ ياسر حسين.

ـ الأستاذ خالد الأمير (OTTO).

ـ الأستاذ محمود الوزير.

ـ الكاتبة د. ريم جمعة.

ـ الأستاذ أشرف مرسي أبو المعاطي.

ـ المحلل المالي علاء زهران.

ـ عمدة كفر الجدعان مهدي الجويلي.

ـ الكاتب والصديق محمد أنور.

ـ عزيزة عزب محمد.

ـ مديري الجامد المهندس تيور سمير.

ـ هاني عامر

ـ بابا حبيبي.

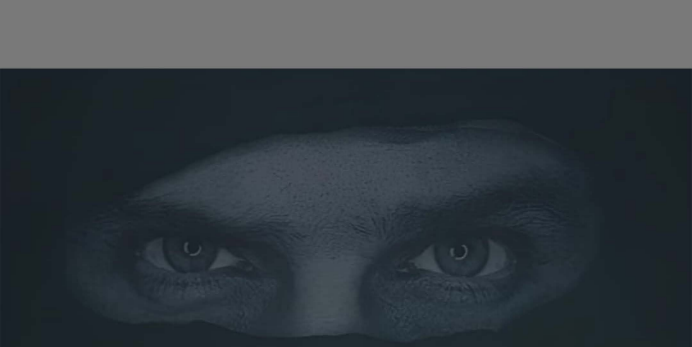

تصريح دفن

غلاف: وحيد محمد

عن عالم مظلم مليء بالجثث التي لم تُدفن بعد، على اختلاف أسماء أصحابها، وأسباب الوفاة، والدوافع التي لم تتضح حتى الآن..
وخلف عشرات علامات الاستفهام، والأدلة التي تبحث عنها العدالة، مازال هناك قبر مفتوح ينتظر أصحابه، بعد استخراج.. "تصريح دفن".

* * * *

أمير عزب

كاتب مصري، صدر له سيناريو بعنوان "المرايا" عام ٢٠١٩، ووصل للقائمة الطويلة بمسابقة ساويرس الثقافية، الدورة السابعة عشر، لأفضل سيناريو فرع كبار الكتاب، كما صدر له مجموعة قصصية بعنوان "للقدر رسائل مشفرة" عام ٢٠٢١.

إبهار
9 789778 993409

t.me/twinkling4